بحث عام

الانفلاتُ العُمراني في المِساحَةِ المُقدّسَة:

التَصوراتُ النَقدية للمدن الكوزموبولويتانية، وَأثر نمذجتها عَلى روحانية المَكان

ماهيتاب صبحي منتصر

باحثة مصرية

مؤمنون بلا حدود

Mominoun Without Borders

مؤسسة دراسات وأبحاث

قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة

جميع الحقوق محفوظة © 2015

مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث

All rights reserved © 2015

Mominoun Without Borders

الملخص:

تهدف الورقة إلى بيان كيف أثرت التوسعات العمرانية في المساحة المكيّة في تحولها نحو المدن الكوزموبوليتانية المُعولمة، القائمة على نمط التنمية الرأسمالية المُجنبة للخصوصية القدسية والروحانية والزمكانية لتلك المساحة التي تتضمن خامس أركان الإسلام. وذلك من خلالِ التَعرضِ لإشكاليات الهَدمِ والبناء المُشوه لاستدامة حجة "خدمة بيت الله الحرام"، التي تُبرر الربح من وراء بيت الله الحرام، وتُجذِّرُ الطبقية والمظاهر الدنيوية، التي تُفرّقُ بين الغني والفقير، وهذا في مضمونه تفكيك لرمزية المساواة في مساحة الحرم المكي. "انْظُرُوا إِلَى عِبَادِي شُعْثًا غُبْرًا ضَاحِينَ جَاءُوا مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، لَمْ يَرَوْا رَحْمَتِي، وَلَمْ يَرَوْا عَذَابِي، فَلَمْ أَرَ يَوْمًا أَكْثَرَ عَتِيقًا مِنَ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ". تلك الحالةُ الشعثاء الغبراء التي تَحدث عنها المولى عز وجل لم يعد لها مكان أمام الترويج لنموذج "الحاج الثري المُستهلك"، وعليه فالمقارنة تستوجب في تلك الحالة معرفة مواطن الخلل. فالتوسعات المُضيقةُ لروحانية الحرم المكي يتجلى فهمها حينما نتعرّض لمدن أخرى تأخذ بالسُبل نفسها في التنمية، وإعطاء رأس المال القرار النهائي، والمتحكم في المساحة العمرانية. ومن هنا تمّت المقارنة بين المساحة المكيّة والمساحة المنكوبة لمدينة لاس فيجاس. ورغم قسوة المقارنة فإنها منطقية لتشابه الآنيات العمرانية في المدينتين كلتيهما، الهادفة بالإساس نحو المزيد من الربح والسيطرة.

1- مفهوم العمران وتنامي المدن الحديثة:

إنّ ظاهرة العمران والتمدّن من الظواهر التي تعمل على نحو مستدامٍ لجذب الانتباه الاجتماعي إليها. وقد يرجع ذلك إلى كونها ظاهرةً حديثةً نسبياً في التاريخ البشري مقارنة بالمتغيرات المجتمعية الأخرى المتمثلة في اللغة، أو الدين، أو الأسرة. فظهور المدن جاء مع ازدياد عدد قاطني تلك المدن، وهذا ما أسّس لعلم العمران الأنثروبولوجي (أو سيسيولوجيا العمران الأنثروبولوجية). كما أنّ العمران يُقدّم تغييراً ثورياً في النموذج الكلي للحياة الاجتماعية للطبيعة المتداخلة بينه وبين التنمية الحضارية والاقتصادية بالأساس[1]. أضف إلى كل ذلك أنّ العمران مازال يحدث، فعلى مدى ديمومته تأتي مشكلاته المعقدة على نحو غامضٍ. كما قد تتحول المدن إلى مَراكز للقوة والتأثير على المجتمع بأثره. فمدن العصور القديمة تطورت في مرحلة ما قبل العهد المسيحي؛ حيث أصبحت مساحة ذات أبعاد وخصائص محددة تعبّر عن الجسد الكلي للمجتمع، ولكنها لا تتماهى في كليّات الجسد المجتمعي. فقد نجد أبعاد وخصائص أثينا (دولة-المدينة) تتباين مع مثيلتها أسبرطة. مع الابتكارات التكنو- منطقية المتنوعة، مثال (المحراث المجرور بالثيران، العربة ذات العجلات، المراكب الشرعية، المعادن والتعدين، الري، تدجين النباتات الجديدة) على نحو يشهد تواضعاً حضارياً جاءت ثقافات العصر الحجري الحديث لتشكل مجتمعاتٍ ومساحات عمران متكاملة. ولكن لا ينبغي قول إنّ تلك الابتكارات التي بدأت منذ عشرات الآلاف من الأعوام كانت كافية لتشكيل هويّة المدن باعتبارها كياناً متمايزاً (مساحة عمرانية) مختلفاً عن التجمعات البشرية البسيطة[2].

فالتحضر أو الزحف الحضري وقيام المدن المتسعة لم تتواجد إلا في النصف الثاني من القرن العشرين بوصفها واحدة من مظاهر العولمة. فتنامي سكان المدن يكون أكبر من تنامي العدد الإجمالي للسكان في العالم، ففي عام 1975 وصل سكان العالم من قاطني المدن والمراكز الحضرية إلى 39% وارتفع ليصل إلى 50% في عام 2000، كما أنه في تزايد مستدامٍ[3].

فنمو المدن أَثّرَ على نحو هائل على العادات والسلوك وأنماط التفكير وقيم الأفراد على نحو جذري ملحوظ. فقد ركز باحثو العلوم الاجتماعية على النظر إلى العلاقة بين تنامي العمران والمدن على نحو يحوز فيه بضخامة سلبية على الإنسان، وربط ذلك بمظاهر التفاوت واللامساواة وشيوع

[1]. Adna F. Weber, **The Growth of Cities in the Nineteenth Century** (New York: Columbia University Press, 1899), pp. 12: 19.

[2]. Kingsley davis, **The origin and growth of urbanization in the world**, American Journal of Sociology, Vol. 60, No. 5, World Urbanism (Mar., 1955), pp. 429-437.

[3]. John Caulfield and linda peaka(eds.), **city lives and city forms: critical research and Canadian urbanism** (Toronto: University of Toronto press, 1996), pp. 32: 37.

الفقر والجريمة والانحراف. في المقابل نشأت العديدُ من المدارس التي تحاول فهم ظاهرة تنامي المدن لتفكيك المشكلات الناجمة عن تلك المدن، ومن أهم تلك المدارس "نظريات النمو الحضري": (مدرسة شيكاغو، والنظريات الاجتماعية المتأخرة).

ـ مدرسة شيكاغو

طرحت أنّ المدن لا تنشأ جزافاً، وإنما تبرز استجابةً لما تقدّمه البيئة من إغراءات ومنافع. ومن هنا، أدى مصطلح الأيكولوجيا دوراً مهمّاً في تفسير المظاهر العمرانية والمدنية. فالمراكز الحضارية والتجمعات الصناعية تتموضع، أو تجد منشأهَا في مناطق خصبة جغرافياً، أي أنها تتمايز على المستوى المكاني الجغرافي. وقد عزز ذلك التصور كُلٌ من روبرت بارك، وإيرنست بيرجس، ولويس ويرث[4].

يرى بارك أنّ المستوطنات الحضرية وتوزيع الأحياء السكانية داخل المدن تكون بمثابة الآلية التي يتمّ من خلالها انتقاء الأفراد الأكثر قدرةً على التعايش ومواكبة خصائص ومزايا تلك المساحة في المدينة، ومِن ثَم تتنامى المدن عبر سلسلة من التنافس والتتابع والانتقاء على نحو أقرب إلى الحياة البيولوجية البربرية التي تقوم على أساس الاختيار والبقاء للأصلح أو الأقوى. حيث يتجمع البشر في المساحة التي قبلتهم بداخلها. فالتكيف مع بعضهم بعضاً يصبح أمراً قطعياً لمواصلة الحياة؛ حيث تصبح تلك المساحة "المدينة" هي نقطة استقطاب وتجمع للمصالح الاقتصادية، ومع اتساع مراكز التجمعات البشرية يفرض الأمر انتشار الهابيطات والضواحي المحيطة بالمدن. وبالتطور أصبح مؤيدو تلك المدرسة يرون أنّ حالة التنافس على الموارِدِ النادرةِ في المدن قد تتحول إلى حالة الاعتماد المتبادل بين المواقع المتباينة في المدينة[5].

وفي المقابلِ، شهدت مدرسة شيكاغو نقداً حول اعتبار النمو الحضري ظاهرة أيكولوجية طبيعية، فقد لا ينطبق على جميع المدن الأمريكية، كما أنّ ذلك لن ينطبق على مدن العالم المختلفة. ومن هنا، برز باحثون من داخل منظومة شيكاغو يرون أنّ النمو الحضري هو نمط متمايز في حد ذاته، وأنّ المدينة هي شكل من أشكال الوجود والممارسة الاجتماعية[6].

---

[4]. Anthony Giddens and others, **Introduction to Sociology**, (W. W. Norton & Company; Seagull Ninth Edition, December 12, 2013), pp. 496: 497.

[5]. Robert E. Park, Ernest W. Burgess, and Morris Janowitz (introducer), **The City: Suggestions for Investigation of Human Behavior in the Urban Environment (Heritage of Sociology Series)**, (Chicago: University of Chicago Press, 1984), pp.63: 80.

[6]. Anthony Giddens and others, **Introduction to Sociology**, (W. W. Norton & Company; Seagull Ninth Edition, December 12, 2013), p.498.

ـ النظريات الاجتماعية المتأخرة

تؤكد على أنّ عملية النمو الحضري ووجود المدن يمكن فهمها من خلال علاقاتها بأنماط التغير في المجال السياسي والاجتماعي. يَرى ديفيد هارفي أنّ المدن تطرح جانباً واحداً ناتجاً عن الأنشطة الرأسمالية؛ حيث يرى أنه في المجتمعات القديمة كان هناك فارق بين الريف والمدن. ولكن بفعل الرأسمالية تمّ ميكنة جميع المساحات؛ حيث أصبح من الصعب معرفة ما إذا كنت في الريف أو المدن؛ لأنّ كلّ صيغ الأحيزة المكانية سيطرت عليها اعتبارات الأسعار والربح، وتحويل كلّ ما هو غير مُميكن إلى ما هو مُميكن. وهذا ما يفسّر التحولات التي تشهدها الفضاءات إلى تقسيمات لمصانع ومراكز صناعية وتجارية وإدارية. حيث تعمل كلٌ من الشركات الكبرى والحكومات على إدارتها (وفقاً لنمط من الإدارة القائمة على إعادة هيكلة الفضاءات المكانية) لما يعزز من الربحية المُفرطة والسيطرة والالتزام المبالغ فيه.[7]

أمّا مانويل كاستلز فإنه يربط بين التحضر من جهة، وبين الحركات الاجتماعية من جهة أخرى. حيث يرى أنّ الفضاء المجتمعي يرتبط بآليات التنمية الكليّة في المجتمع، وأشكال النزاع والصراع بين الجماعات المختلفة فيه. ففهم تلك الآليات والأشكال يُساعد على فَهم الاستحداثات التي تَطرأ على المكان. فناطحات السحاب -على سبيل المثال- تتجلى رمزيتها بتنامي الربح، كما أنّ تلك الطوابق المتعالية تَرمز إلى سطوة المال وهيمنته على المدينة[8]. كما يرى كاستلز أنّ المدينة هي جزءٌ لا يتجزأ من "الاستهلاك المبالغ فيه"، الذي هو جوهر الرأسمالية الصناعية. حيث تمارس الشركات الكبرى تأثيراً هائلاً على تلك العملية؛ لأنها هي التي تقوم بتمويل رؤوس الأموال اللازمة وتقديمها لتكتل المشروعات. وعليه فإنّ الهيئة المادية الفيزيقية للمدينة هي المحصلة الطبيعية لقوى السوق التي تستأثر بالمدينة في أغلب مشروعاتها؛ حيث تبقى مشروعات البنية التحتية التي ليس منها ربحية لسلطات الدولة لكي تقوم بها[9]. ومن هذا المنطلق يحدث ارتباكٌ في مشكلات السيادة وممارسات العدالة الاجتماعية؛ فتنشأ حركات اجتماعية تطالب بتحسين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التي يُسيطر عليها رأس المال.

وعليه يرى كلٌّ من هارفي وكاستلز أنّ المدينة (وحتى الريف) هي مساحات يصنعها البشر والتقنية الحديثة، وهذا ما أدّى إلى إعادة تشكيل العالم والمساحات الطبيعية. كما يرى أنّ المدن ستصبح "عملاقة"،

---

[7]. David Harvey, **Rebel Cities: From the Right to the City to the Urban Revolution**, (London: verso press, 2013), pp. 3: 13.

[8]. Manual castells, **The Urban Question. A Marxist Approach**, (London: The MIT Press, 1979), pp.16: 17.

-, **City, Class, and Power**, (London; New York, MacMillan; St. Martins Press,1978), p.23.

[9]. Ibid.

والتي ستعبّر عن الملامح الأساسية للقرن الحادي والعشرين. وقد لا تتميز تلك المدن بحجمها السكاني أو الجغرافي أو العمراني الضخم، إنما تتميز باعتبارها "مركز العالم" في الاستقطاب لرؤوس الأموال والتجمعات البشرية، فتلك المدن ستكون بمثابة "جيوب" تتدفق منها المؤثرات السياسية، ووسائل الإعلام، والمال، والإنتاج.

وعليه فإنّ "المدن" جاءت مع ظهور التخطيطات العُمرانية الحديثة التي ظهرتْ مع الدولة الحديثة، ولكنّ المستوى التأسيسي للعمران والتمدن يضرب بجذوره في تاريخ التجمعات البشرية، التي فُتحت العقول عليها لكي تُنشئ علماً عمرانياً في الحضارات المختلفة، ومن أهمّها العمرانيات في الحضارة الإسلامية. حيث وضع ابن خلدون الأساس لعلم العمران، عندما طرح في مقدمته أنّ الاجتماع الإنساني ضروري، وأنّ الإنسان مَدني بطبعه؛ حيث إنّ ذلك هو المدينة في اصطلاحه التصوري عن معنى العمران. وإذا تحقق العمران بين البشر تطلب الأمر وازعاً منهم له السلطان بما شرع الله. كما شرح في ذلك العلم العريض للعمران "أحواله وتمدّنه، وما يعرض في الاجتماع الإنساني من الأعراض الذاتية، وما يمتّعك بعلل الكوائن وأسبابها، ويعرّفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها".[10]

فالعمرانُ هُو فَهم طبيعة الاجتماع الإنساني، وما تعكسه تلك الطبيعةُ من الأحوال مثل التوحش، والتأنس، والعصبيات، وأصناف التغلب للبشر على بعضها بعضاً، وما ينشأُ عن ذلك من مُلك، والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب، والمعاش، والعلوم، والصنائع، وما يحدث في ذلك العمران بطبيعته البدالة من الأحوال المنعكسة في صور الانفعالات والبنايات.[11]

كما طرح مسفر بن علي القحطاني، في تصوره عن الوعي الحضاري من منظور المقاربات المقاصدية لفقه العمران الإسلامي، أنّ الغرض من ضرورة فهم علم العمران الخلدوني ودراسته هو ذكر العلاقة بين ما اكتشفه ابن خلدون من أثر الطبائع والأحوال، وفهم الاجتماع الإنساني إلى تحويل هذه المؤثرات والمفاهيم إلى آليات عمل ومشاريع بناء عمرانية ومعمارية في الأرض.[12]

فالمشاريع البنائية في حاجة إلى صناعةٍ وفقه لإخراجها على نحوٍ قويم، وعليه فهناك ارتباطٌ بين مفهوم الصناعة والفقه (أي الصناعة الفقهية وفقهية الصناعة)، حيث إنّ هذا الارتباط يُؤثر على الحضارة الإنسانية،

[10] ـ أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، (بيروت، دار القلم، 1984)، ج1، ص 33

[11] ـ المرجع السابق، ص 32

[12] ـ مسفر بن على القحطاني، **الوعي الحضاري: مقاربات مقاصدية لفقه العمران الإسلامي**، (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2013)، ص 72

والدلالة هي أنّ الاجتماع بين المفهومين يُبرز حقيقة الإتقان المهاري والتصميم المعرفي، والإنجاز الواقعي في خدمةِ الإنسان[13]. فصناعة الفقه من أهمّ أدوات العمل على عمران الأرض بما يخدم مصالح الأجمعين على قدم المساواة والحق. فالصناعةُ أصبحت مرادفاً ملازماً للعلم - إن صحّ التعبير - فأصبح هناك مصطلح "العلم والعمل". حيث إنّ تلك الصناعة يُستَحصل عليها من الاقتراب نحو القوانين والأحوال والممارسات التي توجّه العقل نحو الصالح.[14]

كما تناول ابن خلدون في مقدمته لمفهوم الصناعة حينما أعرب عنها أنها تلك "المَلَكة في أمر عملي فكري، وكونه عملياً هو جسماني محسوس أيضاً، والأحوال الجسمانية والمحسوسة، نقلها أوعب لها وأكمل؛ لأنّ المباشرة في تلك الأحوال أتم فائدة، والمَلَكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مرّة بعد أخرى حتى ترسخ صورته[15]". وهذا يعني تحوّل النصوص إلى منتجات ومبتكرات تعيد إلى الفقه دوره الحيوي في خدمة الإنسان والرقي المجتمعي في الصورة العمرانية المعمارية الجليلة. فالخطابُ القرآني المُعزّز من الاستعمار والعمران يتضح في نصوص كثيرة كونها المرجع لكل منتج أو ابتكار ملموس أو معنوي. يقول الله عز وجل {هُوَ أَنشَأَكُم مِنَ الأرضِ واستعَمركُم فيهَا}[16]، فالتأكيد على الاستبقاء في التعمير من أجل القدرة على العمارة، ومعنى الاستعمار هو الإعمار؛ بجعل الأرض مهداً للبناء والغرس والزرع.[17] فعمارةُ الأرض تُعدّ من أعظمِ مقاصد التشريع؛ حيث تمّ تناول ذلك الجزء من خلال العديد من الفقهاء، ومن أهمهم الإمام ابن عاشور حيث قال: "إنّ من أكبر مقاصد الشريعة الانتفاع بالثروة العامة بين أفراد الأمّة على وجوه جامعة بين رعي المنفعة العامة، ورعي الوجدان الخاص، وذلك بمراعاة العدل {....} والإحسان {...}، وهذا المقصد من أشرف المقاصد التشريعية"[18]. وهذا ما أكد عليه الغزالي في كتابه المستصفى، وبالمثل عند علال الفاسي في تصوره حول مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها.

كما أنّ العُمران في الثقافة المسلمة ينبغي أن يحيط على جانبين، وهما: (1) **القوة**: بمعنى أنّ ما يأتي به الإنسان من بناء وعمران لا بُدّ أن يبزغ فيه صفة المتانة والإتقان، حيث إنّ القوة أساس الإتقان، وهذا ما أكد

[13] - المرجع السابق، ص 73

[14] - الإمام تقي الدين أبو البقاء الفتوحي، **شرح الكوكب المنير**، (مطبعة السنة المحمديّة، ج3، 1987)، ص ص 44- 45

[15] - أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، (بيروت، دار القلم، 1984)، ج1، ص 226

[16] - القرآن الكريم، سورة هود، الآية 61

[17] - أبو بكر أحمد الرازي الجصاص، **أحكام القرآن**، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1994)، ج3، ص 378

[18] - محمد الطاهر بن عاشور، **التحرير والتنوير**، (تونس: الدار التونسية للنشر، ج2)، ص 449

عليه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حينما قال "رَحِمَ اللهُ مَنْ عَمَلَ عَمَلاً وأَتقنَه"[19]. وقوله: "إِنَّ اللَّهُ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ "[20]. وهذا ما أكد عليه أنّ القوةَ شرطٌ فِي المعمارِ، والغرض من ذلك الحفظ، والستر، ودرء الخطر. (2) **الجماليات:** بمعنى أنّ الله جميل يحب الجمال. فالجمال في البناء والعمران يعني خصوصيته التناسقية والتراتبية حسب عُرف المكان والزمان، ما دام ذلك محموداً في غاياته ومنافعه للناس أجمعين.[21]

كما أنّ العمران مثله مثل أمور كثيرة في حياة المسلم التي تتطلب فقهاً لتنظيمها. وعليه فإنّ فقه العمارة يعني مجموعة من القواعد التي ترتبت على حركية العمران؛ نتيجة للاحتكاك بين الأفراد ورغبتهم في العمارة، وما ينتج عن ذلك من تساؤلاتٍ، يجيب عنها فقهاء المسلمين لاستنباط أحكام فقهية من خلال علم أصول الفقه، كما يمتدّ ذلك إلى فقه المياه في الحضارة الإسلامية.[22]

كما أنّ التساؤلات المرتبطة بتشييد العمائر هدفها الأساسي هو السعي لضبط تناسبية العمران مع القيم والحضارة المسلمة. وبمرور الزمن تُشكِّلُ إطاراً قانونياً لحركة العمران في المجتمع يلتزم به الحكام والمحكومون على سواء. وعليه تُمثل السياسة الشرعية للعمران إطاراً عاماً حاكماً يتناول الكليّات العمرانية. كما أنه يتداخل مع فقه العمارة في العديد مِن النقاط، وذلك لارتكاز الأخير على أسس الشرعية، وقيم حضارية مُتعلقة بالأمّة المسلمة. كما أنّ السياسة الشرعية عليها احترام ما جاء في ذلك الفقه. إلا أنّ الواقع يكشف تجاوزات لاعتماد القائمين عليها على السلطة في تنفيذ رغباتهم. فالسياسة الشرعية العمرانية تقوم على سلطة الدولة التي تَسعى إلى تنفيذها، [23] بينما فقه العمران يَقومُ على المجتمع الذي يسعى إلى صيانة قواعد هذا الفقه وتنفيذه، كما يراها الفقهاء المستقلون العاملون وفقاً لمبادئ الفطرة الإنسانية.[24]

---

[19] ـ إسماعيل بن محمد العجلوني، **كشف الخفاء ومزيل الإلباس**، ج1، (بيروت: مؤسسة رسالة، 1403)، ص 513

[20] ـ المرجع السابق.

[21] ـ عبد الرحمن النفيسة، **مسؤولية المهندسين والبنائين**، مجلة البحوث الفقهية المعاصرة، السنة السادسة، العدد2، 1415، ص 184

[22] ـ خالد عزب، **فقه العمران: العمارة والمجتمع والدولة في الحضارة الإسلامية**، (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، يناير 2013)، ص 12

[23] ـ المرجع السابق، ص 12

[24] ـ قد ينعكس طغيان السياسة الشرعية العمرانية على فقه العمران في المؤلفات المتواجدة في التراث المسلم، فقد حظيت السياسة الشرعية بمؤلفات عديدة أبرزها "مقدمة ابن خلدون"، التي تُعد إلى اليوم أساساً في هذا المجال؛ حيث تتضمن في أبوابها علاقة السياسة الشرعية بالعمران، خاصةً عمارة المدن والشروط الواجبة لضبط ذلك العمران، يضع ابن خلدون الأساس لعلم العمران عندما طرح في مقدمته أنّ الاجتماع الإنساني ضروري، وأنّ الإنسان مدني بالطبع؛ حيث إنّ ذلك هو المدينة في اصطلاحه التصوري عن معنى العمران. وإذا تحقق العمران بين البشر تطلب الأمر وازعاً منهم له السلطان بما شرع الله، إلا أنّ هذا الحكم أو السلطان يأتي بعيداً عن الإنكار والتزييف وعدم رغبة مكونات العمران لذلك الحكم. في المقابل لم يحظَ فقه العمارة بالاهتمام الموازن، وقد يرجع ذلك لأنه علم تطبيقي ارتبط برؤية وتصورات المجتمع، ولم يرتبط بالسلطةِ بل إنّه في بعض العصور أصبح فقه العمران والسياسة الشرعية العمرانية في موضع المقابلة، وليس الاتفاق إلا أنّ الأخيرة هي التي كانت تسود لارتباطها بالسلطان والقوة. انظر:

ـ نصر عارف، **في مصادر التراث السياسي الإسلامي**، (فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1994).

ـ خالد عزب، **فقه العمارة الإسلامية**، (القاهرة: دار النشر للجامعات المصرية، 1997).

ـ ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، (لبنان: دار القلم، الطبعة السادسة 1986)، ص ص 41- 44

إنّ الفرق بين فقه العمران والسياسة الشرعية العمرانية لا يعني بالضرورة أنهما في مواضع متقابلة، إنما ما يجب أن يكون هو التناغم والتكامل بين الاثنين، دون أن يكون هناك غلبة لواحدة دون الأخرى. فإذا كانت الأولى ترتبط بالمجتمع والأخيرة بالسلطة، فإنّ الأخير في مبدئيتها الأولية تتطلب أن تستند إلى الضروريات الأساسية لمعاش المجتمع من خلال تناول العلاقات الجماعية، والعمل عبر فقه المصالح (أو فقه الأولويات الجماعية في المصالح).[25] فهي فاعلية حركية تستهدف التوافق مع مضمون الشرعِ بما يرتقي بإنسانية المُشرع لهم.

وعليه فسواء فقه أو سياسة فالهدف في نهاية المطاف هو استقرار مواطن الأنفُس. فالاستقرار هنا يُقصد به الاستقرار ذو الجانب الحركي القائم على التفاعلات الموجودة بين مكونات المساحة، أو المكان، أو النظام الذي يحدث بداخله ذلك التفاعل. كما أنّ ذلك الاستقرار لن يصبح استقراراً إلا من خلال القدرة الذاتية القادمة من نظام تقاطعات ذات تدفقات من "الأسفل إلى الأعلى"، القادرة على استيعابِ أي تغيرات أو القدرة على استعادة نقطة اتزان جديدة، وذلك في حالة وقوع اضطراب بواسطة طرفٍ يسعى إلى فرض تفاعلات مناهضة للتفاعلات المحلية ذات النمط التفاعلي من أسفل إلى أعلى.[26] فالمسعى من ذلك الفهم هو أنّ المكانَ يُعدّ صالحاً إذا كان مستقراً عاكساً لمظاهر المدينة المحلية ذات الخصوصية الثقافية، وحاملة لعبق جينولوجيا المساحة الإنسانية. وهذا وَجد مرده في تصورات الماوردي حينما وضع ضوابط عامة لمواطن المدينة في المكان الصالح للاستقرار، حيث بيّن أنّ المقصود بالمصر (أي المدينة) يتعلق به خمسة أمور: [27]

1- أن يستوطنها أهلها طلباً للسكون والدعة.

2- حفظ الأموال فيها من الإضاعة والاستهلاك.

- ملحم قربان، **خلدونّيات السياسة العمرانية: دراسات منهجية ناقدة في الاجتماع السياسي**، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1984)، ص ص 121- 125

[25] - خالد عزب، **فقه العمران: العمارة والمجتمع والدولة في الحضارة الإسلامية**، (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، يناير 2013)، ص 13

[26] - إنّ الخصيصة الأساسية في الاستقرار الديناميكي هو أنّ الاضطرابات والتشويشات يمكن استيعابها ذاتياً، وذلك لإعادة عملية التفاعل بين مكونات النظام أو المساحة التي وقع فيها ذلك الاضطراب أياً كانت ملامحه ومسبباته، وليست حيثما كانت عليه عندما وقع الاضطراب، ولكن حيثما أرادت أن تتقدم - أي المكونات- إذا تُركت دون عوائق مزعجة لتلك القدرة الذاتية. كما أنّ التنظيم الذاتي قد يستلزم لأن تكون مكونات أي نظام معقد لديها القدرة على استعادة نقطة اتزان جديدة، وذلك في حالةِ وقوع اضطراب بواسطة طرف خارجي. فوفقًا لذلك النموذج، فالنظام يصبح مُستقراً، وذلك عندما يكون لديه القدرة على الاستيعاب الذاتي للاضطرابات، وذلك بهدف الوصول إلى حالة جديدة من الاتزان. فالاضطرابات يمكن أن تُلاحظ على أنها الاختلافات التي تؤثر على الحالة الفعلية للمكان. حول الانخراط في مفهوم الاستقرار والتفصيل بين الاستقرار الحركي الديناميكي القائم على تفاعلات محلية تأتي من القاعدة إلى القمة والاستقرار (البسيط) وفقاً لنظريات العلاقات الدولية الكلاسيكية، ومقارنتها بنظرية التعقيد الاجتماعي انظر:

Sherif Abdel Rahman Seif EI-Nasr, **Strategies of stability: US intervention in the Middle East (1953: 2008) A social complexity Approach**, (Liverpool: university of Liverpool, 2012), pp. 11: 80.

[27] - أبو الحسن على بن محمد حبيب الماوردي (تحقيق: رضوان السيد)، **تسهيل النظر وتعجيل الظفر بأخلاق الملك وسياسة الملك**، (بيروت: المركز الإسلامي للبحوث، دار العلوم العربية، 1987)، ص 210. كما يؤكد الماوردي في هذا المقام على أنّه باستحكام تلك الضوابط في إنشاء "المصر أي المدينة" فإنّ لها التأبد، ولم تزل إلا بقضاء محتوم وأجل معلوم.

3- صيانة الحرم من أي انتهاك ومذلة.

4- التماس ما تدعو إليه الحاجة من متاع وصناعة.

5- التعرض للكسب وطلب المادة.

ففهم تلك الضوابط يجعلنا نستخلص أنها صالحة لكل مساحةٍ في أي زمنٍ معينٍ من الدهور المتلاحقة. فالمكانُ يتطلبُ السكون، وعدم تأسيس عمارة المكان على منطق استنفادي لأموال البشر، من خلال الانفلات الاستهلاكي والمبالغة فيه، ووضع نموذج "المستهلك الثري" الذي يحدد استهلاكه دوره الاجتماعي، والاقتصادي، وحقوقه السياسية، وأفقه الثقافي، وحراكه المدني، أضف إلى ذلك منع الانتهاك والمذلة للحرمات، والتماس الحاجة الأساسية والكسب والعيش على نحو كريم. حيث أكد الماوردي على ذلك بقوله "فَإِنْ عُدِمَ أحدُ هَذه الأُمُورِ الخَمسةِ؛ فَليستْ مِن مَواطنِ الاستقرَارِ، وَهِي مَنزلةُ قيعة ودمار".[28]

2- تصور المجال العمراني والمعماري من منظور مسلم:

إنّ الفردَ في محيط باديته يصدر عنه تحركات وممارسات في السياقات التي تشكل مجال الحضارة العُمرانية، فالعمران قَد يُعرف على أنه ذو صفة مدنية civilization أو حضارية. يُزكي ذلك التفسير ي.ب. تايلور حينما طرح أنّ: "هذا الكل المعقد الذي يتضمن المعرفة، والاعتقاد والفن والأخلاق والحقوق والعادات وسائر القدرات التي اكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في مجتمع"[29]. كما وضع ر.ي. ديكسون تصوره حول العمران بأنه "مجملُ منتجات شعب ونشاطاته والنظامُ الاجتماعي والديني والعادات والمعتقدات التي نسميها عادة حضارة عند شعب أكثر تقدماً"[30].

ولكنّ غياب المرجعيات الفكرية والثقافية والدينية والعمرانية في المدن الإسلامية والعربية، أصبح هو عنوان حداثيتها وتطورها عن مثيلتها التي ماتزال متراجعة من جميع النواحي؛ بدءاً بما هو فكري، وانتهاءً بما هو عمراني. فكلما اتجهت المدن إلى النمط أو النموذج الأحادي الناتج عن الفكر الحديث القائم على سياسات العولمة، أصبحت أكثر قدرة على الاتجاه نحو المدن الكوزموبوليتانية، التي صارت مقياساً أو معياراً يُقتدى به، إذ أصبح هناك إرادة نحو التقدم. وكلما قامت المدن بتعميق القطيعة بين ماضيها وحاضرها، بين الإنسان

[28] ـ المرجع السابق.

[29] E.B.Tyalor, **primitive culture**, (London, 1871, vol.I.), P.1.

[30] R.e.Dixon, **the Building of Culture**, (New York, 1928).

ومحيطه، وبين الإنسان والإنسان، رغم تقارب المساحات والتحركات، وتداخل المصالح وتعقيدها؛ حيث أصبح الاعتماد الأكبر والأوحد على مؤسسات الدولة الحديثة، كانت بذلك على نحو أكثر عقلانيةً ورشداً[31].

فغياب الفكر العمراني والمعماري الفردي والجماعي المُستقى من مُقومات الحضارة والثقافة العربية والإسلامية هو الذي أتاح مساحة ما لإمكانية، بل حتمية، تتبع نمط "النموذج المدني أي على مقتضى المدن"؛ حيث تصبح المساحات في اتجاه وحيد من التعمير، العمران، والتحرك داخل تلك العمرانيات المُعقدة.

وعلى اعتبار أنه كان هناك تصور عقلي معماري لدى الفقهاء السابقين، فيمكن محاولة طرح دقيق حول كيفية تصور الفقهاء للحيز المعماري والعمراني داخل المدينة الإسلامية وخارجها، على أساس أنهم هم الفاعلون الأساسيون في تصور المدينة، ومُحددون لحقائقها المجالية والمكانية والفراغية عبر فترة زمنية محكومة بتعقيدات الأحداث والتفاعلات المحلية. فما من حيز أو مساحة مجالية أو فراغ عمراني داخل المدينة كالفناء، الطرق، المزانق، الأزقة، العرصة[32]، الهواء- بشقيه العلوي والسفلي- إلا وكان للفقهاء فيه آراء وأقوال عديدة وفاصلة[33]. كما أنّ الإنتاج الفقهي الناتج عن هؤلاءِ لم يؤول إلى خلافات تفضي في نهاية الأمر بالهدم أو الإزالة أو حتى التعديل المعماري، وفقاً لمذهب ضد مذهب مخالف أخر، حيث تطرح مدينة تونس، كما ذكر الدكتور عبيد السبيعي، بوتقة لأكثر من مذهب وأكثر من فقيه ومفتٍ كالمالكية والأحناف، وقد تعاقَب عليها العرب والبربر والأتراك والأندلسيون وغيرهم من الفرق والقبائل، وحتى الجاليات اليهودية والنصرانية لزمن طويل. ورغم كلّ ذلك التنوع والتعقيد لم ينعكس ذلك في خلافات فقهية عمرانية تنعكس في شكل هدم أو إزاحة مساحات حيزية من موضعها المتناغم مع هويتها المنسوجة في حالة من التواصل والتفاعل الإيجابي بين

---

31 ـ فعلى سبيل المثال في الدول الأوروبية، قد نجد أنّ هناك العديد من حوادث الطرق للسيارات، خاصةً في الطرق التي تصل بين مدينة وأخرى (مثال الطرق الصحراوية أو الزراعية) فإنك لن تجد سيارة تقف لنجدة سيارة أخرى قامت بحادثة طريق، ذلك ليس لأن هناك فردانية أو عدم الرغبة في التعاون داخل المجتمعات الأوروبية، إنما لأنه في اللحظة التي تقع فيها حادثة الطريق تكون الدولة متدخلة في طرفة عين المتمثلة في تلك الحالة بسيارات أو طيارات الإسعاف التابعة لوزارة الصحة، سيارات أو أفراد أجهزة الشرطة للتحقيق في نوعية الحادثة، وما إلى آخره من عمليات مُتطلّبة لاحتواء الحادثة بأقل الخسائر الممكنة. وعليه فإنّ تدخل الفرد لمساعدة الأخر سيكون نوعاً من الممارسة التي قد تُعرقل عمل الدولة في طريقها الصحيح لتأمين الأرواح، والممتلكات، والأشياء الأخرى.

انظر حول مرجعيات تتعلق بالتمدن الأوروبي لفهم السياقات الحديثة في المدينة الأوربية: رفيق العظم (تقديم: عبد الرحمن حللي)، **البيان في التمدن وأسباب العمران**، (القاهرة: دار الكتاب المصرية، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 2012)، ص ص 88-97

32 ـ هي بقعة واقعة بين الدور الواسعة ليس فيها بناء. وقد يكون هناك عرصات مختلفة الوظيفة والشكل والإحكام تخضع للقواعد الفقهية نفسها، ومنها الأفقي والآخر يكون عمودياً ويقسم إلى ثلاثة مستويات: **أولها** الهواء السفلي وهو الحيز الذي يمتد من سطح الأرض إلى تخومها السفلية، **وثانيها** ما ظهر من سطح الأرض من العرصة، وهو ما عرف مجازاً بالعرصة نفسها أو بـ"القرار" عند بعض الفقهاء **وآخرها** الهواء العلوي، ويمثل الحيز الذي يمتد من سطح الأرض إلى عنان السماء. وتخضع تلك المستويات الثلاثة في عمارتها واستعمالها إلى الأحكام الشرعية الخمسة: الواجبة، والمحرمة، والمندوبة، والمكروهة، والمباحة. انظر: **القاموس المحيط**، الفيروز آبادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت: الطبعة الأولى 1991، الجزء الثاني)، ص 451

33 ـ عبيد السبيعي، **تصور المجال المعماري والعمراني عند الفقهاء**، في ندوة: الفكر الديني ومواكبة العصر (الواقع والآفاق)، (جامعة الزيتونة، مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان، 28-29-30 نوفمبر 2005)، ص 95

الخبرات المعمارية والعمرانية المختلفة، وما رافقها من نظم فقهية عمرانية متباينة، والغنية في ملامحها العمرانية البنائية.[34]

رغم تتابع الفرق الإسلامية بعمرانها المختلف الذي يُعبّر عن مذهبها وضربها الذي تَسلكه لتنظيم أسلوب الحياة والسلطان في المدينة. إلا أنه لم يكن هناك عمليات هدم واسعة النطاق لمعمار عام أو خاص؛ نتيجة للاختلاف أو الغرض من إزالة التراث لتشييد عمرانيات أخرى تصبح مصدراً للتربح والتطاول العمراني المنعكس في تحركات الرأسمالية في المساحات العمرانية التي تعتبرها مساحات مُهدرة، لا بدّ من التعالي في عمرانها حتى يتسنى لها أن تدخل في رَكب المدن الكوزموبوليتانية. فذلك التناغم العمراني بين الفرق المختلفة والمرجعيات المتباينة تدلل على وحدة "مساحة" المدينة الإسلامية والعربية، واحترامها لجميع المرجعيات الفكرية والدينية المختلفة دون التفكير في مساس تلك المعماريات لأسباب متباينة.[35]

أمّا في العصرِ الحديث والمعاصر، فلم تدرك العقول الهائمة في مساحة المدينة العربية الإسلامية قيمة الموروث الذي تُرِكَ، أو ما تَبقى منه في تلك المدن، فالاستبدال نتيجة التزاحم الحضاري الوافد إلى المدينة العربية الإسلامية بأنماط من التصورات الهجينة، وبتصورات مقطوعة الصلة بمنتوجات الحضارة العربية الإسلامية، وبالواقع الزمكاني المتأثر بالامتدادات العمرانية العربية والإسلامية؛ أصبح السمة الأساسية للمدن العربية والإسلامية الحالية، دون إيلاء أي اهتمام للتصورات الأولية للحيز المعماري والعمراني المُؤسس له من قِبل فقه العمران التراثي المتمثل في:

2-1- التصور المقاصدي والشرعي:

إنّ ذلك التصور يهدف بالأساس إلى وضع مدينة تستقي مقوماتها من الشريعة الإسلامية، وتستمد الكل والجزء من البعد المقاصدي لهذه الشريعة في تخطيطها، وحاجياتها، ووظائفها، وشروط دوامها، وتحركاتها الخاصة والعامة. وذلك في سبيل جلب المنفعة ودرء المفسدة لجميع أطراف المجتمع، دون التفرقة بين الغني والفقير، الرجل والمرأة، المالك وغير المالك، المنتمي إلى عُصبة أو لا عصبي. فالمخططات المقاصدية العمرانية لتلك المدن تتولى مهمة التجذير لدار واحدة للجميع.[36]

---

[34] ـ المرجع السابق، ص 96

[35] ـ المرجع السابق، ص 97

[36] ـ ابن الأزرق (تحقيق: محمد عبد الكريم)، **بدائل السلك في طبائع الملك**، (بيروت: الدار العربية للنشر، ج1، 1977)، ص ص 223- 231

2-2- التصور الواقعي الزمكاني:

لقد وضع عبيد السبيعي منطلقاته الفكرية حول التصور الواقعي الزمكاني استناداً على الأطروحات المقاصدية للفقيه الشافعي ابن الأزرق حول عمرانية المدينة؛ حيث طرح أنه من الضروري التأسيس لتصور عقلاني يستمد مقوماته من واقعه الزماني والمكاني الناتج عن التفاعلات المحلية القائمة على مقاصد الشريعة، من جلب المنفعة للجميع ودرء المفسدة عن الجميع. وذلك لن يتحقق إلا بحسن تدبير وتنظيم المجال والحيز تدبيراً عقلانياً؛ وذلك بتخطيط الفراغات والشوارع والمساكن وغيرها لتوفير أسباب العلم، والرزق، والأمن، والبيئة الصحية المتعافية[37]. وعليه فإنّ التوفيق بين مقاصد الشريعة من جانب، والتفاعلات المحلية بين الأفراد في واقع زماني ومكاني ذي خصوصية معينة من جانب آخر يؤول إلى القدرة على تجنب أمراض المدينة، أو الفرض القسري للتخطيطات المدنية على قاطنيها، دون إرضاء تصوراتهم النابعة عن احتياجاتهم العمرانية والمعمارية المُعبرة عن آرائهم، وليس آراء مُصمميها.

وعليه فإنّ التصورات المقاصدية والزمكانية الواقعية تُعطي دليلاً على فهم كُنه العمارة المسلمة، ومقوماتها الأساسية في فقه العمارة، الذي سعى إلى إظهار البعد الشرعي الحقيقي للحيز والمجال داخل المدينة العربية والإسلامية، بما يحقق النفع ويدرأ المفسدة من خِلال مراعاه مفاهيم الحرية والأولوية في المعادلات العمرانية، مع العلم أنّ الحرية والأولوية العمرانية لا تأتي بالضرر على حقوق الغير، وتقديم الحزم والتفضل على الفردية في العمران، والاستئثار بالمساحات للذات. والغير هنا ربما يشتمل على الجار، والمار، وحتى عابر السبيل[38]. وهذا ما يؤسس لمفهوم عدم الاحتكار أو السيطرة على المجال العمراني من فئة لها الغلبة والسلطة على فئة أخرى في المجتمع. وربما تكون الأولى هي الأقلية، والأخيرة هي الأغلبية ممّا قد يؤدي إلى التطور المُحتقن المشوه للمدن.

---

[37] ـ المرجع السابق.

[38] ـ عبيد السبيعي، **تصور المجال المعماري والعمراني عند الفقهاء**، في ندوة: الفكر الديني ومواكبة العصر (الواقع والآفاق)، (جامعة الزيتونة، مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان، 28-29-30 نوفمبر 2005)، ص 108

3- قابليات المساحات في الوصول إلى أصول التمدن والعمران والحفاظ عليه

ممّا تمّ طرحه من تصورات عمرانية في الخبرة المسلمة على نحو وجيز، يتضح أنّ التأسيس للحرية الأولوية وعدم الضرر العمراني هو اللبنة الأولى نحو طلب التمدن والعمران الحقيقي، فدرء السيطرة العمرانية والمفسدة يُوحي بالتمدن في معانيه الأوسع، التي قد تتمثل في الإقبال على طلب العلوم، والمعارف، والفنون، والصنائع، والمعامل للتجريب، والمدارس، واستحضار الأدوات الحسية والمعنوية والحدسية اللازمة للحالة الحضرية، وانعكاس كلّ تلك الممارسات والتحركات على البنيان العمراني القائم على التأنيس الفكري والعقلي والروحاني.

فالقابلية هي النية والقدرة على الإقبال بكل المساعي والجهود لإتمام ما تمّ الإقبال عليه. وبما أنّ التمدن لم يخرج عن كونه قابلية؛ وعليه فإنّ التطبيق الصحيح لتصورات المجال العمراني والمعماري، وفقاً لمقاصد الشريعة وتصورات زمكانية واقعية، يتطلب الأمر ضرورة وضع المجال موضع "القابلية" لإتمامه، ومِن ثَم يحدث التمدن الذي فيه نفع ومعاش للبشرية. في المقابل في حالة القابلية لعدم الإقبال، فالاستبدال والتبديل غير المطابق للشرع سيكون هو المآل المعمول به في المجال العام والخاص، المتعلق بالحيز والمساحة العمرانية في المدينة العربية والإسلامية. وهذا هو السير في السُبل المناهضة للتمدن.

كما أنّ أولى خطوات التمدن والعمران هي اتباع ما جاء في الشرع وسنة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والأخذ بالنواميس الإلهية على المستوى الزماني، المكاني (الجغرافي التضاريسي)، والسياق الثقافي الاجتماعي الاقتصادي، والتقاسيم المجتمعية، والتدبير السياسي، وغيرها من الأمور التي هي في موضع تدبير من خالق البسيطة مع التحركات الناتجة عن العقل البشري المُستقي أبستمولوجيته من القرآن، الوحي والسنة، ومتطلبات الحياة المستحدثة بما يتوافق مع الشرع، ولا يأتي على مستجدات العصر والزمن من أفكار على المستوى المادي والمعنوي. وعليه فيأتي التمدن والعمران بالاستقامة في طريق الحق، وأن ينتصف الإنسانُ لنفسه وغيره، ما بين ما هو شرعي وما هو عصري، أليق بما هو شرعي؛ وعليه يتحقق العدل الذي هو سبب عمران المدن وخلوها من العلل والجور.

3-1- نحو مكان روحاني وعمراني:

إنّ المساحة المكيّة هي مساحة لها طابعها الروحاني القُدسي باعتبارها من أولى المدن المسلمة، وقبلة لعبادة المسلمين على مرّ العصور والدهور. تشهد ترحالاً من كلّ فجٍّ عميق، ويسعى إليها ملايين المسلمين

رغبة في استكمال أركان الإسلام، يحرصون على مُلامسة قدسيةِ المساحة التي تحمل العديد من الماقبليات، وذلك لأخذ ما يمدّهم بطاقة لمواصلة المابعديات في حالةٍ من الإيمان والإحسان.

وعليه فإنّ التحركات والتوسعات في مثل تلك المساحة الحاملة من عَبق الروحانيات العميقة تتطلب التأمل والفهم؛ لأنّ تلك المساحة هي مساحة مفتوحة، ومن المفروض ألّا تَحمل طابعاً ضيقاً، إنّما هي مساحة وضعت للناس أجمعين. فقد شهدت تلك المساحة العديد من التوسعات التي لها مدلولات مادية، ومعنوية، وعمرانية، واجتماعية، وثقافية، وحضارية. ففي العصر الحديث من تاريخ التوسعات كان التركيز ينصبّ فقط على عظمة تلك المشاريع التوسعية وشموليتها المكانية وتعقيدها وتطورها دون أن يكون هناك دراسات معمارية وعمرانية نقدية، ومعرفة مدى قبول تلك التحركات من قِبَل العديد من الفواعل والفاعلين. فقد تحتاج تلك التحركات التوسعية ضرورة إشراك الشعب السعودي، ومسلمي العالم لمعرفة تصوراتهم، وذلك يعتبر حقاً رمزياً، على اعتبار أنّ تلك المساحة تَحمل رمزية المدينة الكونية المقدّسة لدى المسلمين.

فالدراسات السابقة تسعى لتكريس الثناء والشكر لسخاء الدولة السعودية على مثل تلك المشروعات، دون طرح تساؤلات حول: ما المحفزات من وراء عظمة مثل هذه المشروعات؟ هل هي لخدمة مسلمي العالم حقاً؟ لماذا تتمركز مثل هذه المشروعات في مَوقعٍ معين من مساحة المدينة المكيّة دون الأخرى؟ ومن ثمّ تنشأ دراسات موازية نقدية، ليست مقللة من مكانة مثل هذه المشروعات، إنما هي مجرّد محاولة لفَهم سلبيات تلك التوسعات على المساحة المدنية وعمرانية المناطق المجاورة، والتأثيرات الضارة على مكيّة المساحة المقدّسة؛ فالمكيّة هنا ترتبط برمزية المواقع والشعائر والذكريات، وآثار ذلك على حياة المكيين، ومسلمي العالم، وآثار ذلك على حقّ الأجيال المسلمة القادمة.

وربما يرجع جزءٌ من الشحّ المتجذر في الدراسات النقدية العمرانية والمعمارية تجاه المشروعات التوسعية في الحرم المكي إلى الرغبة النيوليبرالية المغلفة بالسلطة القمعية، المتحدثة دائماً باسم الدين الحنيف في جعل مثل هذه المشروعات بعيدة عن دائرة الفهم، وتفسير التحركات على أراضٍ مقدسة كونية، يتعلق بها حقّ كلّ مسلم على وجه البسيطة، وذلك تحت شعار "خدمة بيت الله الحرام"، ومن هنا نَبدأ.

3-2- تاريخيات لقداسة المساحة المكيّة:

تحاول الفقرات التالية الوقوف على الجينولوجيا العُمرانية والمعمارية والتخطيطية لسياقِ مكة بصفتها مدينة، ورابطة ذلك بروحانية النشء والتطور؛ لفهم المكانة الفطرية التي خُلقت لتلك المساحة المتفردة جغرافياً، وتاريخياً، وروحانياً. وكأنّ مكة المخلوقة هُيّئتْ لها الطبيعة والسياقات المحيطة لإضفاء الإيمان الإحساني

الروحاني على جوانب المساحات المقدسة. ولكن في العقود الماضية شهدت العديد من التحركات والتوسعات المعمارية، التي تعكس أطُراً دنيوية ربحية، تضع المحيط البصري للمكان بعيداً عن التجليات الروحانية. فاختلال البصيرة كان النتيجة الناشئة عن الخرسانيات النيوليبرالية، التي تتنافس من أجل استقطاب رؤوس الأموال، والتعزيز من ثقافة الاستهلاك المبالغ فيها. وهذا ما نتج عنه انفلات المساحات من فضاءاتها المقدّسة إلى إضفاء ملامح المساحات المدنسة ـ كما يُطلق عليها- فالتمايز بين المساحتين لم يعد ملحوظاً على نحو واضح.

قد يتطلب الأمرُ ضرورة التطوير للمساحة المقدّسة لاستيعاب التزايد العددي والثقافي للمسلمين حول العالم، لكن هل من الممكن أن يكون مقبولاً أن تأتي تلك التخطيطات التنموية على "رمزية المكان" المتشرف ببيت الله الحرام، ومستقر الوحي والإنسانية للأجمعين؟ تكون الإجابة بالطبع بالنفي.

لم تكن مدينة مكة المكرمة من المساحات المقدّسة دينياً وروحانياً فحسب، إنما تستمد روحانيتها من عَبق التاريخ، فهي أقدم مساحة (مدينة) على وجه البسيطة. استمرت تجليات المساحة حتى وُضعَ حجر الأساس الأول لبيتِ الله الحرام من قِبل إبراهيم ـ عليه السلام ـ وظلت تلك المساحة في تفاعلاتها المتقاطعة مع العامل الزمني. ففي بدايات الدولة الأموية شهدت تلك المساحة عمراناً بارزاً لتفضيل السلطة في ذلك الوقت للبناء والعمران، مع السماح بوضع محفوفات سكانية كنواة عمرانية لتشكيل مدينة حقيقية. وهكذا تواترت وتيرة التراكمات الحضارية المعمارية العمرانية التنموية في تلك المساحة التي عكست عَبقَ التاريخ، روحانيات القداسة الإلهية، ورمزيات زمكانية أخرى. أمّا على الجانب اليومي فقد تميزتْ ببساطة وفطرية العمران ومردودياته على القيم الثقافية والمرجعيات الدينية للكيفيات التي تعالج بيئتها الإنسانية والحضارية[39]. وهكذا أصبحت "حياة" مدينة.

في العصر الحديث جاءتْ التوسعات الكُبرى التي استقر عليها الشكل الآني للمساحة المكيّة بداية من فترة حكم الملك فهد بن عبد العزيز[40]. ففي الفترات السابقة كانت الإضافات البشرية التي كانتْ تَسقط على تلك

[39] ـ علي عبد الرؤوف، **من مكة إلى لاس فيجاس: أطروحات نقدية في العمارة والقداسة**، (القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر، يناير 2014)، ص 37.

[40] ـ المرجع السابق، ص 34

المساحة لم تتعدَ الترميمات والأعمال العمرانية البسيطة، إلا أنّه بعد ذلك شهدت الانعكاسات التخطيطية العمرانية الكبرى التي راحت تنازع المكانة القدسيّة المعطاة[41].

على منوال الجيوسياسي فقد يكون هناك ما يُسمّى بالجيوقدسي، فالاختيار الإلهي لجغرافيا المكان أضفى على المساحة بُعدها الإعجازي وتميزها الروحاني، بدءاً مِن أنها غير زراعية، قليلة المياه، مروراً بعدمِ شق أنهار لتلك المساحة، أو وقوعها على ممرات تجارية مائية، انتهاءً بالإحفاف المعماري لوادي الحرم المكي (وادي إبراهيم) بسبعةِ جبال (مثال، جبل النور الذي كان مقراً لغار حراء، الذي اعتاد النبي صلى الله عليه وسلم الاعتكاف به، وجبل ثور الذي كان مقراً لغار ثور الذي احتمى به النبي وصاحبه). فتدارك مثل كلّ تلك الرمزيات تغيب من الذهنية الرأسمالية في الوقت الحالي، التي وصل بها الأمر إلى تفجير جبل أجياد أحد تلك الجبال السبعة؛ لكي يُؤسَّس مكانه مجمع من الفنادق الفاخرة.[42]

في الواقع فضلت السلطات السعودية السعي الدائم إلى زيادة القدرة الاستيعابية للمنطقة المركزية للحرم المكي، إلا أنّ هذا السعي غُلف بمقاومةِ أفكار تنموية تُسقِط الأبعاد الروحانية للمكان، وذلك عندما نبذتْ المشاريع التنموية العمرانية التي تأخذ في الاعتبار علاقة تلك التوسعات بالشخصية المكانية القُدسيّة للمساحة المكيّة. فمقترح "سندي" في 1408هـ كان الاهتمام الأصيل لمثلِ هذا المقترح هو تحديد التصور العام للعلاقة بين العمران والمسجد الحرام، بما يتناسب مع المكانةِ الروحانية، والعمرانية، والبيئية، والثقافية، والاقتصادية للمكان، مع التوصية بضرورة عدم التوغل في ارتفاع المباني، وذلك لتسخير المجال البصري تجاه "الكعبة"؛ حتى لا تبدو نقطة وسط ناطحات رأسمالية[43]. كما أنّ ذلك المقترح ركّز على تقوية روابط المواصلات إلى المناطق الحضرية خارج المنطقة المركزية، وليس بداخلها، مع إعطاء الطابع المعماري التقليدي أهمية في تطبيق تفاصيل التصميم الحضري للحفاظ على خصوصية المكان، التي بدأت في الاختفاء منذ اكتشاف النفط بكميات هائلة؛ حيث تعرضت المملكة لطفرة معمارية ذات مسحة حداثية في تكويناتها العمرانية[44]. كما شكّل

---

41 ـ في موضوع التوسعات العمرانية بشيء من التفصيل بدأ من توسعة الخليفة عمر بن خطاب ثم عثمان مروراً بالتوسعات في الدولة الأموية، ثم العباسية ثم العهد المملوكي، انتهاءً بالتوسعات العمرانية للحرم المكي الشريف في العصر الحديث من أسرة آل سعود، انظر: خالد بن سليمان العبيد، **الحرم المكي الشريف: التوسعات العمرانية وتطور الخدمات (دراسة تحليلية)**، (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، 1426)، ص ص 29- 80

42 ـ رقية نجية، **البيئة الطبيعية لمكة المكرّمة: دراسة الجغرافية الطبيعية لمنطقة الحرم الشريف** (المملكة العربية السعودية: مؤسسة الفرقان للتراث، 2000)، ص ص 89- 93

عبد اللطيف بن عبد الله بن دهيش، **عمارة المسجد الحرام والمسجد النبوي في العهد السعودي: دراسة تاريخية حضارية**، (المملكة العربية السعودية: مكتبة الملك فهد الوطنية، 1999)، ص ص 307- 311

43 ـ علي عبد الرؤوف، **من مكة إلى لاس فيجاس: أطروحات نقدية في العمارة والقداسة**، (القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر، يناير 2014)، ص 48

44 ـ صادق فقيه، **تأصيل الطابع المعماري المكي في عمارتها الحديثة**، رسالة ماجيستير غير منشورة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 2010، ص ص 36: 44، متاحة على الرابط التالية:

قدوم العمالة والمعماريين الأجانب نقلة حضارية بعيداً عن العمران التقليدي المكي، وهذا ما أدّى إلى تجاهل التراث الحضاري للمجتمع بأكمله.

3-3- العمران المُقدَّس لمكةِ المكرمة:

إنّ صفة المقدّس تحمل في طياتها مضامين من الصعب إضفاؤها على أيّ عالم من العوالم سواء كان عالماً مادياً أو معنوياً. فقد يعكس المقدّس انسياب الزمن والأحداث على مساحة مُحدّدة (أو حتى كيان معين)، والاتفاق حول استمرار إعجازيته مقارنة بالسياق المحيط؛ ممّا جعله على مرِّ الدهور مركزاً للانتباه والتبجيل. وعليه فمحاولة مَعرفة الوصل بين العمارة والعمران والقداسة الروحية للمساحات ذات الطابع الديني ستشكّل خطوة مبدئية لفهم قدسيتها؛ لأنه من الضروري أن يتوقف العقل عند تساؤل: "لماذا ذلك المكان على وجه الخصوص يخاطب العقل والوجدان والروح ومشاعر الإنسان في وضعٍ مقدّس؟".

- العمران المقدّس:

إنّ قُدسيةَ العمران تأتي من قدرته على تحويل النطاق المعماري (الموجود مادياً) إلى نطاق قيمي روحاني (مُفتعل وجدانياً)، وهذا ما يتضح على سبيل المثال في كهوف بدايات التاريخ، التي راح الإنسان يرسمُ على جدرانها لإضفاء الإيمان والطابع القدسي على تلك الجدران. وهذا ما يُدلل على عدم حتمية الربط بين العمارة الدينية فقط والقداسة، فليس كلّ مساحة مُقدّسة تكون بالضرورة مساحة دينية، بل ربما قد تكون كلّ عمارة أو مساحة دينية من العمارة المقدسة. وعليه فقد يَكون من الخطأ وصف القداسة في العمران بالمباني الدينية فحسب، إنما يتجاوز ليشمل طرقات وكهوفاً وحارات ضيقة (أزقة)، وقرية أو حتَّى مدينة متكاملة[45]. فالمساحات والمباني التي أُنشئت من أجل وظيفة دينية لن تنجح في إدخال الأجواء الروحانية الملائمة، والانتقال ممّا وراء المادي الحسي، واستشراف العوالم الروحانية السماوية الربانية. وهذا ما يُفسّرُ أسبابَ اختيار المساحات التي يُشيّد عَليها العُمران الذي يكتسب قدسيته من التفاعل الجينولوجي الرباني بداخله، كبناء دير سانت كاترين في شبه جزيرة سيناء على سفح جبل سيناء، حيث تحدث الله سبحانه وتعالى إلى النبي موسى عليه السلام.[46]

---

http://www.google.com.eg/url?sa=t&rct=j&q=&esrc=s&source=web&cd=1&cad=rja&uact=8&ved=0CBwQFjAA&url=http%3A%2F%2Flibback.uqu.edu.sa%2Fhipres%2Ffutxt%2F7928.pdf&ei=4QCVVcvYGYHrUM_IgJAL&usg=AFQjCNFUNtfBDWWiqStUjvSPhIm4v6Mm3g&bvm=bv.96952980,d.bGg

[45]- على عبد الرؤوف، **من مكة إلى لاس فيجاس: أطروحات نقدية في العمارة والقداسة**، (القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر، يناير 2014)، ص 54

[46] - المرجع السابق، ص 56

لقد حاول الإنسان دائماً العمل على تمكين العمران من عمق جمال الأرض لإنتاج منظومة معمارية تُقرّبه من حالة الجمال الرباني التي قد توفر له مظهراً من مظاهر الجنّة، وهذا ما يُفسّر إطلاق العديد من البشر على مساحة ما بأنها "جنة الله في الأرض". فجمال العمران يسعى إلى التجذر في العقل والروح لتحقيق الأجواء الروحانية المتعلقة بالسياق الديني أو حتى غير الديني[47]، وذلك للوصول إلى غاية "التأمّل"، ومعرفة الماورائيات لفهم المابعديات، وهذا ما يتضح في العديد من الدراسات التي ربطت بين المجال الميتافيزيقي الرياضي، والعمارة لتأصيل التداخل العضوي والهندسي بالنسق الفلكية السياقية في صياغة المبنى الذي في نهاية الأمر يكتسب روحانية التأمل لممارسة تأمل الروحانية.

وهذا ما جعل الاهتمام يتّجه نحو "فَهم" التأمل الناتج عن تلك الصياغة المعمارية من خلال تحليل البُعد النفسي للمبنى، وللفراغ العام على الإنسان، وتفسير المجال البصري المباشر وغير المباشر، والجماليات المتواجدة في التشكيل المعماري والعمراني. والمجال الجيومتري الهندسي الذي يؤكد على مجموعة من الثوابت. فالشكل المكعب للكعبة المُشرفة يُمثّلُ فكرة المركز، التوجه، الاتجاه، فكرة الطواف بإيقاع منتظمٍ مستدامٍ استكمالاً "لفكرة الوجود" يأتي الماء متدفقاً متجسداً في بئر زمزم وهو أصل وسرّ الحياة.[48]

أمّا في عمارة القرن العشرين فلم يعد هناك مجالٌ لمعرفة متى وأين يقع التأمل؛ لأنّ تلك العمارة أو العمران الحداثي لم يُركز مطلقاً في النواحي والجوانب الروحانية المقدّسة، فالتكثيفُ اتجه نَحو المنفعة الاقتصادية والرأسمالية الراغبة في التراكم الخرساني، الذي سيترجم إلى تراكم رأس المال في المدى القصير والمتوسط والبعيد. وهذا ما جعل مشروع ما بعد الحداثة للعمران يَسعى في طريق محو الفجوة الموجودة بين السياق والخصوصية الثقافية والاجتماعية والعمران المكاني لإيجاد مساحات حضارية مجتمعية ذات خصائص متباينة ومتمايزة، وقادرة على التعايش رغم ذلك التباين والتمايز[49]، وإيجاد سُبل لتجاوز الوظيفية الحادة التي صبغت عمارة القرن العشرين.[50]

---

[47] ـ المرجع السابق، ص 55

[48] ـ صادق فقيه، **تأصيل الطابع المعماري المكي في عمارتها الحديثة**، رسالة ماجيستير غير منشورة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 2010، ص 58، متاحة على الرابط التالية:
http://www.google.com.eg/url?sa=t&rct=j&q=&esrc=s&source=web&cd=1&cad=rja&uact=8&ved=0CBwQFjAA&url=http%3A%2F%2Flibback.uqu.edu.sa%2Fhipres%2Ffutxt%2F7928.pdf&ei=4QCVVcvYGYHrUM_IgJAL&usg=AFQjCNFUNtfBDWWiqStUjvSPhIm4v6Mm3g&bvm=bv.96952980,d.bGg

[49] Suha zkan, **faith, culture, and architecture: in faith and built environment, architecture and behavior**, VOL.11, NO.3-4, PP. 181: 183.

[50] ـ علي عبد الرؤوف، **من مكة إلى لاس فيجاس: أطروحات نقدية في العمارة والقداسة**، (القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر، يناير 2014)، ص 57

3-4- دور "الفراغات العمرانية[51]" في الخروج على (الإغفال المهذب):

وضع إرفنغ غوفمان، عالم الاجتماع، مفهومَ "الإغفال المهذب" الذي يعني صيغاً من اللقاءات والمواجهات والتفاعلات في المدن التي يتجمع فيها المئات بل الآلاف من الناس على جانبي الطرق، ويسيرون في اتجاهين مختلفين، كلٌ في مقصده، إذ يتجاوز الواحد منهم الآخر بما يحيط الآخر من جدران، أو أشياء، أو أشخاص آخرين بسرعةٍ كبيرة في أغلب الأحيان، من دون أن يعير أيّ اهتمامٍ لتلك المعادلة المتضمنة لعوالم كثيرة من الأشياء والأشخاص والأحداث. في المقابل يتوقع الجانب الآخر مثل هذا السلوك في الأحوال العادية. إلا أنّ هذا الموقف لا يعني تجاهل تلك العوالم كُليّاً؛ لأنه من المُدرَك أنّ هناك قدراً من الوعي لحركات ووجود مثل تلك العوالم داخل المدينة الواحدة[52]. رغم أنّ هذا السلوك يتمّ بشكلٍ عَفوي، واعتقاد البعض أنّ مثل تلك المواقف هي بسيطة في بنيانها؛ فإنّ علماء الاجتماع يعتبرون هذا الموقف بسيطاً في ظاهره معقداً في موضوعه، وقد يرجع ذلك إلى أنّ الأفراد داخل المدينة أصبحوا في حالة ميكنة مستدامة، ومِن ثم انتزع من كينونتهم فكرة الروحانيات والتأمل والوقوف للتفكير في أسباب تلك الأمور. قد يترتب على ذلك سلسلة من العلل والاختلالات المجتمعية، التي يصعب معالجتها على المدى الطويل لتعقدها. من ذلك المنطلق يأتي علم الاجتماع لمحاولة فهم تلك العلل والاختلالات لمعرفة ما ينبغي أن يكون. وعليه تحدث حالة من التفاعل بين العلوم في مساحة الدراسات الحضارية (البينية) لتحديد مواطن الخلل.

---

[51] ـ الفراغ العمراني هو المكان أو المساحة التي تحوي الأشياء، والأشخاص، والأنشطة عن طريق أبعاده الثلاثة، كما أنه له صفة التطور بمرور الزمن سواء تطور عمراني أو تطور إنساني (يقصد بالتطور الإنساني هنا السلوك والأنشطة والحركة وكل ما يتعلق بالإنسان من تصرفات). وبذلك يتخذ الفراغ العمراني هيئته وبنيانه من خلال العلاقات بين خطوط العناصر التي تحدده، حيث يوحي الفراغ للإنسان بمشاعر عديدة بما يلائم وظيفته. فالفراغات تختلف من الاتساع إلى الضيق ومن البساطة إلى التعقيد ومن الانفتاح إلى الانغلاق، فالفراغات تتنوع في أشكالها وأحجامها ومعالجاتها لتتخذ خصائص فراغية لا نهائية؛ لتخدم الوظائف والأنشطة الإنسانية المختلفة. أي أنّ الفراغ العمراني هو الشكل النهائي للعلاقة بين الإنسان والأشياء التي يدركها. فالفراغات العمرانية قد تكون **الجدران** أي المستوى الرأسي التي توجه الحركة والخصوصية، وقد تكون مستويات مادية كالجدران والأعمدة المادية، وقد تكون طبيعية مثال الأشجار والتضاريس، أو **الأرضيات، وهي** قاعدة الفراغ العمراني الذي تقام عليه الأنشطة المختلفة، وتخلق حالة من التفاعل، أو **الأسقف** هي التي تحدد الفراغ من أعلى، وفي الفراغات المفتوحة؛ حيث تكون السماء ويمكن إضافة سقف إلى الفراغ، أو إلى جزء منه بغرض تحديد الفراغ أو لإعطائه مقياساً معيناً أو طابعاً خاصاً أو للحماية. كما أنه يمكن تحديد فراغ بعناصر خفية وبمجرد تلاشيها يختفي الفراغ كالمظلة التي تُستخدم لخلق ظل مؤقت في الشمس والوقاية من الأمطار؛ حيث يتلاشى هذا الفراغ بمجرد إغلاقها. وغيرها من أنواع متعددة للفراغات العمرانية. ومن هذا التعريف يمكن أن نميز ثلاثة مكونات رئيسة للفراغ: (1) فراغ عبارة عن حجم وليس ثنائي الأبعاد. (2) الفراغ له حدود واضحة.(3) الفراغ يُدرك، ويرتبط بالخبرة الإنسانية. تضم الفراغات العمرانية نافذة على حياة المدينة؛ حيث تضم كمّاً هائلاً من الأنشطة والحركة وإعداداً كبيرة من سكان المدينة. وقد اهتم العديد من رواد التصميم العمراني بدراسة الفراغات العمرانية، ومن أبرزهم (krier) حيث قال: "إذا أردنا توضيح مفهوم الفراغ العمراني بدون تأثير الاعتبارات الجمالية فإنه من الممكن أن نشير إلى جميع الفراغات المحصورة بين المباني في المدن وغيرها بـ (فراغات عمرانية)، والفراغ العمراني هو فراغ محاط هندسياً بمجموعة من الواجهات، ومن السهل إدراك خصائصه الهندسية والمعايير الجمالية به". للمزيد انظر:

Yoshinobu Ashihar, **"Exterior Design In Architecture"**, (New York: Van Nostrand Reinhold, 1981), p.14: 18.

Simonds. Johan, **Landscape Architecture**, (U.S.A: Mc Graw Hill, 2nd Edition 1983). P. 164.

Kevin Lynch,"**Site Planning**", (Cambridge: The M.I.T,1971), p. 209.

فرانسيس شنج (ترجمة: أحمد الخطيب)، **العمارة: كتلة وفراغ ونظام**، (القاهرة: مكتبة الأنجلو مصرية، 2012).

[52]. Erving goffman**, Behavior in public places: notes on the social organization of gatherings**, (USA: The free press and colophon, 1966), pp.33: 58.

في المقابل يأتي علم العمران ليحلل ما السبب في ذلك التغافل المهذب، والتسارع في التجاهل والابتعاد عن التفاعل في ظل المساحة الواحدة (المدينة الواحدة) بين بشرٍ يتمتعون بالحد الأدنى من الخصائص المشتركة، إلا أنهم لم ينتبهوا إلى بَني جنسهم، ولا إلى المساحات المحيطة بهم للتأمل (كأحد مهام العمارة/العمران المقدّس). فواحدٌ من أهم الأدوار المعمارية العمرانية هي قدراتها على تقديم "تشكيلات فراغية" لتستوعب بداخلها وحولها أنشطة وتفاعلات وممارسات البشر كافة. فجوهر العمارة العمرانية يعتمد على تنظيم مجموعات من الفراغات والأحيزة المكانية؛ لتؤثر على سلوك الإنسان ومشاعره، حيث ينتج عن تلك الأمكنة والتسلسل الفراغي قدرات استكشافية للتحرك خلال هذه الفراغات أو النطاقات العمرانية العظيمة، التي تؤثر في الإنسان تأثيراً كبيراً، وتدمجه في تجارب حسية وبصرية وإدراكية متمايزة من خلال التفاعل مع الآخرين ومع الجدران والبنى المعمارية لمساحة المدن[53]. وهذا ما يعزّز من عمليات التفاعل الإنساني الذي يَعني أنّ أحد طرفي عملية التفاعل يكون ميالاً إلى اكتشاف ما حوله، وربما الوجدان والوعي بما يراه ويحسّه. فالفراغ العُمراني ينتج عنه تفاعل يميل نحو الخروج (أو بتعبير أكثر حدة "انتهاك") عمّا نتوقعه، أو ندرج عليه خلال مواجهتنا للبيئة المحيطة التي تعودنا عليها. كما أنّ تلك الفراغات تَعمل على جذب الانتباه للتأمل، والبحث في أعماق الذات التي تجعل "الخروج عنه" أمراً حتمياً قابلاً للإنجاز.

وهذا ما يُساعد على تفاعلِ إنساني متداخل، وخلق مستوى من العلاقات الروحانية والتآلف؛ لأنّ تلك الفراغات العمرانية قد تُعزّز من التأمل والبحث عن الذات من خلال التحفيز للتساؤل عن معنى الحياة والوجود؛ ومن ثم تتحول الفراغات العمرانية إلى فراغات روحانية. وعليه فإنّ تلك الخصيصة لن ترتبط بالمعمار الضخم الثري، إنما هي نوعية قد تتواجد في العمرانيات البسيطة المتواضعة. إذن فإنّ القيمة الروحانية للمكان تتجاوز قيمته المادية ومقياسه البنائي أو العمراني.[54]

في هذا المقام قد تتضح الفراغات الروحانية في بساطة تصميم المهندس المعماري المصري (حسن فتحي) الذي قام بتصميم مسجد قرية القرنة من الطوب الطيني، الذي ينمّ عن رحابة الزمن وعبقه وروحانية الإنسان؛ حيث راعى فيه التكاليف الاقتصادية غير المبالغ فيها، ونزعة الانتماء للإقليم territoriality، وخصوصية المجتمع، والفراغات الروحانية.[55]

---

[53]. Ibid.

[54]. Ibid.

[55] ـ حسن فتحي (ترجمة: مصطفى إبراهيم فهمي)، **عمارة الفقراء: تجربة في ريف مصر**، (القاهرة: نهضة مصر، 2009)، ص ص 9: 15. قد نرى استخدام الفراغات العمرانية لتعبير الشعبي المصري عن الرحلة المقدّسة واضحاً، تطبيقاً على مكانة وقدسيّة الحرم المكي، ففي بلاد النوبة بمصر يتمّ استخدام الفراغات العمرانية (كالجدران) للتعبير عن إتمام (الحج الفلاني) للرحلة المقدّسة، وذلك من خلال الرسم أو الكتابة على الجداران الخارجية الاحتفالية لوجهة المنزل للتعبير عن الحالة النفسية، والروحانية، والاجتماعية المستحدثة من زيارة المساحات المقدسة، حيث إنّ تلك الجداران تشهد حالة

مسجد القرنة، مدينة القرنة الجديدة بغرب مدينة الأقصر

كما تتضح روحانية البيئة المبنية وعلاقاتها بالفراغ العمراني من خلال العلاقة بين المسجد والفراغ العام المفتوح المعروف باسم "الساحة"؛ فهي تعبّر عن الحرص على توفير المجال البصري والعمراني الذي يعظم قيمة المسجد، ويحتم وجوده من رؤيته عن بعد إلى الاقتراب منه وحتى الدخول إليه، ومن أهم الأمثلة التي يمكن من خلالها فَهم دور الفراغ العمراني: جامع الأزهر أو مسجد السلطان حسن في القاهرة، ومسجد الأزرق في اسطنبول؛ فتلك المساجد تدلّ على أنّ الإطار العمراني يؤكد ويكمل الصورة المقدّسة، والأحاسيس الروحانية للمكان[56]. بالمثل يتضح الأمر في الكاتدرائيات الكبرى في أوروبا التي تعكس السياق العمراني للمحددات والأسس لضمان استدامةِ القيمةِ المكانية والروحانية للمكان، ومثال على ذلك كنيسة ساغرادا فاميليا أو كنيسة العائلة المقدّسة، وهي كنيسة كاثوليكية رومانية، تُعدّ من أضخم كنائس أوروبا، تقع في حي ساغرادا فاميليا بمدينة برشلونة، كاتالونيا في إسبانيا.

3-5- الفراغات العمرانية وأجواء مكانية مكيّة: مقارنة الماضي بالحاضر

لقد تمكنَّا في الفقرات السابقة من وضع الفراغ في دوره المهم؛ لتحقيق التأمل والتفاعل بين الناس داخل أو خلال أسوار المدينة، وقد لا يرتبط ذلك بالثراء والفخامة العمرانية للمكان، بل يتمايز في بساطة وتواضع المساحة. وعليه فمقارنة المساحات المقدّسة لمكة المكرّمة، وكيف كانت تستقبل الحجاج في أجواء مكانية ممتلئة بالروحانيات، رغم بساطة المعمار وكيف تستقبله في الوقتِ الحالي. ففلسفة الحج كانت تقوم على سيطرة الأجواء المكانية، حيث البساطة، والتساوي، والتواضع بين جميع الأفراد، الغني منهم والفقير، فالكلّ في حالة تجرّد لمواجهة حالة من انمحاء الذنوب[57]. وقد تتضح تلك الحالة الروحانية العميقة في العديد من السير والحكي

من الديناميكية في النسق الاجتماعي. فمع عودة الحجيج من زيارة الكعبة المُشرفة يقوم برسم مراحل رحلته على منزله للتعبير عن حالة الحج المبرور والذنب المغفور.

[56] ـ علي عبد الرؤوف، **من مكة إلى لاس فيجاس: أطروحات نقدية في العمارة والقداسة**، (القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر، يناير 2014)، ص ص 68-69

[57] ـ المرجع السابق، ص 65

والصور الفوتوغرافية، التي فازت بتلك المسحة الربانية قبل الشروع في تحولها إلى حالة من الانفلات العمراني الجامد.

وقد يتضح ذلك في السيرة الذاتية لمالكوم إكس، عندما زار الكعبة المشرفة في رحلة حج روحانية شعر بها في التساوي بين الأبيض والأسود، على أساس أنّ ذلك كان من ضمن انشغاله الدائم؛ أي قضية العنصرية ضدّ السود في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث أفرد الفصل السابع عشر من سيرته بعنوان "مكة" لقصّ الوجدانيات التي لمست روحه وعقله. وبعد إتمامه لرحلة الحج الشاقة الروحانية التي لا تُفرّق، إنما المشترك بداخلها هو الإسلام والرغبة في إتمام أركانه في هدوء وخشوع كامل. كما اتضح من سرده للرحلة أثر العمارة والعمران والفراغ على حالته النفسية، وتحوّله عن قضية العنصرية والتمييز بين الأبيض الشيطان والأسود المظلوم، إلى قضية النفس البشرية بغض النظر عن التغييرات الهيكلية التي تُميز بين الأفراد والأنفس. هكذا اتضحت روحانيات المكان من قَصّ الحاج مالك الشباز[58]، حينما قال: "كنت حتى ذلك الحين قد صغت في ذهني رسالة حول انعدام الإحساس باللون في العالم الإسلامي الراجع إلى التدين والإنسانية، وهما الصفتان اللتان كان أثرهما عليَّ يزداد يوماً بعد يوم، ويغيّر تفكيري".[59]

أمّا في الوقت الحاضر فإنه يمكن الطرح بأنّ هناك أزمة إبداعية في العمران المسلم داخل المدن المقدّسة، فالبعدُ الداخلي للإسلام يُوضح الدور الذي لعبه الفن والعمران في حياة الفرد المسلم، وفي المجتمع بشكل كلي؛ حيث إنّ هذا الدور يعزز تذكُّر الذات الإلهية. فالعمارةُ الآنية في العالم المسلم إمّا أن تكون عمارة على النمط الحداثي الاستهلاكي المفرط، المُعزّز من الهياكل الصندوقية المتعالية البنيان، وإمّا هي عمارة تتعامل مع رصيدِ التراث الإسلامي من منظور استهلاكي بهدف الترويج السطحي لاحترام الثقافة والعقيدة والمجتمع. وهذا نتيجة منطقية للعمارة الحداثية، وذلك لسيادة العقلية النفعية الرأسمالية[60]. ولكن هذا المأخذ على تلك السياقات العمرانية الحداثية لا يعني الارتباط العضوي المغلق على الموروث التراثي، إنما يعني التحفيز من خلال العمرانيات الموروثة، للمساهمة الإبداعية التي توثق لمساهمات المسلمين في المشروع الإبداعي الإنساني في الإطار الزمكاني الحالي الذي نعيش به بصفتنا بشراً متطلعين.

---

[58] ـ إليكس هالي (ترجمة: ليلى أبو زيد)، **سيرة ذاتية: مالكوم إكس**، (بيروت: بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، 1996)، ص ص 244: 263.

[59] ـ المرجع السابق، ص 259

[60]. Sayyed Hossin Nasr, **Islamic Art and Spirituality**, (New York: state university of new york press, 1987), p.13.

في واقع المدن المعاصرة في السياق المسلم لم تعد تبرز أدبيات التخطيط والعمران المنصف للإنسان، مثال المدن الصديقة للطفل، المدن الصديقة للمرأة، المدن الصديقة للإنسان، المدينة العادلة، المدينة الصديقة للمشاة، المدينة المعرفية والإبداعية. تلك الأشكال المعاصرة من المدن أصبحت مسؤولة عن درجة ارتباط المجتمع بالمدينة وانتمائه إليها.

4- الحراك المُتسارع نحو نموذج عالمي بديلاً لنموذج المدينة القديمة المقدّسة:

إنّ مكة المكرّمة من ضمن المدن التي شهدت، ومازالت تشهد أزمة إبداعية بكل تأكيد؛ فأصبحت من ضمن النماذج التي تتسارع نحو عالمية العمران والعمران العالمي، حيث شهدت العديد من التحولات الأساسية، مثلها مثل التخطيط في المدن الخليجية المعاصرة مثل دبي، وأبو ظبي، والدوحة.

إنّ النموذج العالمي في المدن كما وضعتها ساسكيا ساسن هي المدن التي تمثل مركزاً مؤثراً في النظام الاقتصادي والسياسي والثقافي والحضاري العالمي. فالمدينة تكتسب تلك القدرات التأثيرية من قدرتها على فَهم العولمة، والتعامل الذكي مع معطيات العولمة[61]. فملامح المدن الكوزموبوليتانية تتبلور من خلال بُعدين وهما: (1) الشكل العمراني والتركيبة البصرية التي جعلت من الصورة العمرانية للمدن العالمية، مثل نيويورك ولندن، النموذج المرجعي البصري والذهني لمفهوم عالمية المدن، وبشكل تدريجي أصبحت تلك المدن العالمية بمثابة الخريطة التي على أساسها تهتدي باقي المدن حول العالم. (2) القُدرة على خلق مركز جذب عالمي مُحفز ومستقطب للاستثمارات والبشر والمعلومات والأموال والأعمال، ومِن ثمّ فالمدن الكوزموبوليتانية هي ليست كوزموبوليتانية الشكل فحسب، بل كوزموبوليتانية الانتشار والنطاق والجذب والتفكير.[62]

فالاقترابُ مِن منظور ساسن إلى المدن الخليجية يوضح أنّ تلك الأخيرة أصبحت تسعى إلى إزالة الصورة الذهنية المبسطة عنها، وهي أنَّها مدن صحراوية، وخيام وبساطة في العيش وتناول مع السياق المحيط والبيئة، وتحولها من خلال الأخذ بالإطار المرجعي من المدن المعولمة والسعي لتعقيد بنيانها، وإزالة خُصوصيتها بإدخال العديد من الملامح الكوزموبوليتانية على الهويّة الخليجية، فالمنتج يُصبح مشوّهاً ومعقداً، على أساس أنه لم يحافظ على نقاء خصوصيته بإجراء بعض التحديثات الإبداعية، وفي الوقت نفسه نقل العمران المرجعي القائم على عالمية المدن دون معرفة الغرض، أو تداعيات ذلك الانتقال على سياقه الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والحضاري والعمراني. فما قامت به تلك المدن الخليجية الراغبة في التحوّل هو التعرّض للفكر وأسلوب الحياة وفلسفة الاستثمار والاستهلاك الغربي، دون معرفة كيفية توظيف ذلك دون التعدي على خصوصيتها، وقد يكون ذلك أثر العولمة الجديدة التي لا تعني التداخل اقتصادياً أو مادياً فحسب،

[61]. Saskia sassen, **the global city: New York, London, Tokyo**, (UK: Princeton press, 2001), p.17: 48.

[62]. Ibid.

إنما تمتدّ لتشمل الانسياب المسيطر على الجوانب غير الملموسة من الثقافة والمساحة والإنسان، كما أنّ تأثيرها أصبح صعب المعالجة والتغيير والمقاومة.[63]

ربما يرجع ذلك التأثير الحتمي إلى أسباب عديدة ومتداخلة، لن نسردها، وإنما يُعدّ من أهم أسباب ذلك التأثير الحادث دون التفكير أو النظر في تداعياته، وهو تدفقات النفط وارتفاع مستوى الدخول ارتفاعاً هائلاً في دول الخليج، ومِن ثَمّ ازدياد متطلبات المجتمع والأفراد من أدوات الاستهلاك والرفاهية والاتصالات وغيرها، ممّا لا يُمكن للسوق المحلية من تلبيته بحال. ومِن ثمّ أصبح الاهتمام المُركز على الصورة العمرانية للمدينة من أهمّ المؤشرات الدالة على تسويق عالميتها وبالأحرى تعولمها؛ حيث راحت المدن الخليجية، مثل دبي ومكة المكرمة والدوحة، من المدن التي تهتمّ بالإبهار والتضخيم من المجال البصري التشكيلي فقط؛ الأمر الذي جعل الكثير يَعتقد في فقدان تلك المدن روحها العربي، وأصبح من الصعب تحديد الجغرافيا التي تتعايش بداخلها، على الرغم من وجودك بداخل المدن العربية[64]. وهذا ما نتج عنه منطقياً وجود الطبقات الواضحة داخل مساحة تتسارع فراغاتها لأن تكون عالمية أو متعولمة؛ حيث أصبحت مسارات رؤوس الأموال موجّهة من الشركات الأجنبية المتعددة الجنسيات، وإليها فقط[65].

أمام ذلك طرح العديدُ مِن النُقادِ الضوء على أزمة التنمية المعاصرة في المدن المقدّسة؛ مثل مكة المكرمة والمدينة المنورة. فالتناقض الجليل في مفاهيم التنمية، التي تَعمل بعيداً عن الهويّة والرصيد الثقافي والعمراني، أدّى إلى سيطرة الثقافة الأجنبية على العُرف، واللغة، والأسماء، والجغرافيا.[66]

5- السياحة الدينية الإسلامية: إشكاليات الهدم والتشوية لاستدامة فلسفة "المواسم":

قد يمثل الحج والاعتمار مصدراً من مصادر الدخل القومي الأساسي للمملكة العربية السعودية، وهذا ما جعل المملكة تبذل أقصى وأقسى جهودها لجذبِ العديد من الاستثمارات، وهذا ما دفعها إلى الترويجِ لنمطِ "المواسم"، الأوّل ممتد على مدار العام، والآخر مُقتصر على موسم الحج فقط. كما أنها وضعت تخطيطات

---

[63]. Ibid

انظر أيضاً: علي عبد الرؤوف، **من مكة إلى لاس فيجاس: أطروحات نقدية في العمارة والقداسة**، (القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر، يناير 2014)، ص 79

[64] ـ المرجع السابق، ص 80

[65]. **Mecca makeover: how the hajj has become big business for Saudi Arabia**, the guardian, Nov 2010, available at: http: //www.theguardian.com/world/2010/nov/14/mecca-hajj-saudi-arabia

[66] ـ عبد الله السدحان، **الآثار الاجتماعية للتوسع العمراني: المدينة الخليجية نموذجًا**، (الدوحة: مركز البحوث والدراسات، 2010)، ص ص 12- 19

عُمرانية رأسمالية حديثة أثارت جدلاً واسعاً بين مسلمي العالم، فقد وضعت السلطات بالاشتراك مع منفذين من شركات عالمية متعددة الجنسيات تلك التخطيطات العمرانية، بغض النظر عن تداعياتها من زاوية النواحي التاريخية والطبيعية والاجتماعية والاقتصادية بل والإنسانية والحضارية. ففي مقابل القيام بتلك المشاريع الضخمة، تطلب الأمر نزوح العديدِ من السكان الأصليين في المنطقة، وهدم قلاع وشوارع كلاسيكية، وأسواق شعبية، ومكتبات ومقاهٍ قديمة تراثية؛ حتى يُشيد مكانها الهياكل والبنيات المُؤكِدة على قوى رأس المال النفطي المفرط، بالتعاون مع المقاولين والمستثمرين الربحيين من القطاع الخاص، والشركات متعددة الجنسيات، وسلطات الدولة المنحصرة فقط في السلطة التنفيذية للعائلات الحاكمة[67]. وهذا ما انعكس في تصريحات الأمير خالد الفيصل أمير منطقة مكة المكرّمة، الذي صرّح بأنّ المملكة تسعى إلى جعل مكة من وجهةٍ دينيةٍ إلى نمذجتها؛ لكي تصبح مدينة التنمية والتحديث العالمية. كما انعكس في فتاوى رجال الدين وعلماء التفسير الذين أجازوا هدم الأماكن المقدّسة، التي قد يكون هناك عدم إجماع حول شرعيتها، مثل قبر السيدة حواء؛ حيث تمّ هدمه تماماً في بدايات القرن الماضي بأمر من هيئة الأمر بالمعروف.[68]

كلّ تلك التوسعات والحركات غير المنطقية كان لها تأثير على سكان تلك المناطق المقدّسة؛ حيث تسبب الأمر في ارتباك بصري ذهني وروحاني لملايين المقيمين والقادمين للاعتمار والحج كلّ عام. ففي السنوات الأخيرة لم يعد الحاج قادراً على الفهم أو الوعي للمساحات التي زارها من قَبل، أمّا الذي زارها للمرّة الأولى فقد ارتسمت المناطق المقدّسة في ذهنه بمثابة مجموعة من الفنادق والأسواق التجارية، والمطاعم الفاخرة التي تُكرِّسُ لنوعٍ جَديدٍ من التمييزية المكانية، رغم أنّ رمزية ذلك المكان تتمثل في المساواة والتواضع[69]؛ حيث تتداخل المجالات البصرية، وجُذبت نحو رموز الفراغات العُمرانية الرأسمالية، وأصبح الوجدانُ في حالة صراعٍ بين المساحة المقدّسة والمساحة الرأسمالية، فالمساحة المكيّة تشهد عملية تطور مربح تعيد إنتاج اللامبالاة بالقيمةِ الروحانيةِ للمكان. خاصّة بعد "مشروعات الهدم[70]" للجبال المحيطة بالحرم المكي، والمعالم

---

[67] ـ المرجع السابق، انظر أيضاً المكتبة الإسلامية، **الآثار الاجتماعية الناشئة عن التوسع العمراني**، متاح على الرابط التالي:

http://library.islamweb.net/newlibrary/display_umma.php?lang=&BabId=1&ChapterId=4&BookId=2101&CatId=201&startno=0

[68] ـ المرجع السابق.

[69] ـ طارق علي فدعق، عبد المحسن فرحات، **نحو مبادئ متكاملة لتخطيط وتصميم المنطقة المركزية لمكة المكرمة**، (المملكة العربية السعودية: مجلة جامعة الملك عبد العزيز، العلوم الهندسية، 1992)، متاح على الرابط التالي:

http://www.kau.edu.sa/Show_Res.aspx?Site_ID=320&LNG=AR&RN=52486

[70] ـ من إحدى المعالم المهمة التي هُدمت في سبيل تشييد العديد من الأبراج الفندقية مثال قلعة أجياد التي يعود تاريخها إلى عام 1780 بنيت في موقعا بمعرفة العثمانيين لحماية الحرم المكي من بعض القبائل المتمردة التي كان بعضها ينتمي للطائفة الوهابية. وقد أحدث قرار الهدم السريع والمفاجئ للقلعة أزمة دبلوماسية بين السعودية وتركيا، خاصة عندما شبهت السلطات التركية هذا التصرف بأنه لا يقل بشاعة عن هدم طالبان لتماثيل بوذا في أفغانستان، والتي كان عمرها 1700 عام. حيث أثار ذلك موجات غضب داخلية صامتة وخارجية بدأت من تركيا ووصلت إلى منظمة اليونسكو. حيث كانت القلعة من المباني القليلة جداً المتبقية والقريبة من حافة المسجد الحرام في مكة المكرمة. وناشد رئيس البرلمان التركي (مراد سوكمين غلو) الحساسيات الدينية

التراثية الأخرى لإقامة "ناطحات" توظف لخدمة الربحية، وكما أنها بمثابة "فراغ عمراني: جدران" لوضع الإعلانات المتعلقة بشركاتٍ وعلاماتٍ تجارية عالمية، وسلاسل مطاعم الوجبات السريعة على نحوٍ يثير انغلاق الأفق، لتفسير كيف تمّ تمرير ذلك وعدم مقاومته.

إضافة إلى كلّ تلك التوسعات غير المُبصرة يأتي "برج ساعة بيج بين الإسلامية" المعروف باسم "برج الساعة الفندقي الملكي" لعرض الدراما الرأسمالية المتوحشة، والفوارق المالية والطبقية المتجذرة في مساحة التساوي والمساواة؛ لتعرض بجدلية النسق العمراني والانفلات العمراني لتدمير المواقع التراثية العالمية[71]، كما أنّ ضحايا التدمير لم يتم تعويضهم على نحو مناسب، بالإضافة إلى أنّ هناك عائلات كاملة تكبدت المعاناة والمآسي التي طالتهم على إثر هدم منازلهم التي حملت في طياتها ذكريات الأجداد والآباء، كما أنها الأقرب إلى الأماكن المقدّسة. كما استخدمت الحكومة وصف "الأحياء العشوائية" للمجتمعات المحيطة بالحرم المكي، حيث صرّحت الأمانة العامة لهيئةِ تطوير مكة المكرمة والمشاعر المقدسة أنّ عدد العشوائيات بمنطقة مكة المكرمة وصلت إلى 25% من المساحة العمرانية للمدينة، وهذا ما يستوجب إزالتها. والغريب في الأمر أنّ عمليات اكتشاف ووضع إحصاءات دقيقة حول العشوائيات تتم فقط في المنطقة المحيطة بالحرم المكي.[72]

كما تمّ النظر إلى تلك المناطق العشوائية على أنها محصلة لظروف اجتماعية واقتصادية سيئة، وتتميز بطابع عمراني سيّئ، كما أنها مناطق جاذبة للوافدين والمخالفين لنظام الإقامة والعمل بالمملكة العربية السعودية؛ وعليه فإنّ سكان تلك المناطق من المواطنين والوافدين (نظاميين أو غير نظاميين) أصبحوا يُشكلون عبئاً على المجتمعِ لعدمِ قدرتهم على التجانس مع بقية أجزاء المدينة الحديثة، وعليه فالحل يأتي بإزالتهم واقتلاعهم من مساحتهم السكانية.[73]

في هذا المقام نجد أنّ هيئة تطوير مكة المكرمة - الجهة الحكومية الرسمية عن المشاريع الاستراتيجية لمكة المكرمة- قد أسندت أحقية صنع القرار إلى القطاع الخاص المتمثل في (شركة بن لادن) على وجه التحديد، التي راحت تعمل على تقسيم المساحات المكيّة بما يخدم فقط "الحجيج الثري"، وتلبي احتياجاته بدءاً بالخدمات التجارية الجديدة، ومراكز التسويق الحصرية مروراً بغرف الفنادق غالية الثمن بشكل مبالغ فيه،

والقومية، واصفاً الإجراءات السعودية بأنها "غير إسلامية"، وفي نهاية الأمر تمّ الهدم الكامل للقلعة في 2002. ففي عام 1924 هدمت السلطات السعودية معظم المساجد التاريخية والمعالم الأثرية في مكة المكرمة والمدينة المنورة. وعلى الرغم من الاحتجاجات من جانب اليونسكو والدول الإسلامية الأخرى فقد دمروا حتى بيت النبي - صلى الله عليه وسلم - في مكة المكرمة ومئات من أضرحة الصحابة.

[71] - المرجع السابق.

[72] - علي عبد الرؤوف، **من مكة إلى لاس فيجاس: أطروحات نقدية في العمارة والقداسة**، (القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر، يناير 2014)، ص 94

[73] - المرجع السابق، ص 96

المُطلة على الحرم المكي، كما صدرت عدد من الفتاوى التي تجيز الصلاة من تلك الغرف ذات النوافذ المُطلة على الحرم المكي، وتحسب على أنها صلاة جماعة وإجراء بعض المناسك الطفيفة من تلك الغرف انتهاء بإتاحة المساحات واستثمارها في التكريس من الاستهلاك المُفرط.[74]

في المقابل طرح مركز فقيه للأبحاث دراسات عن العمران المكي، حيث طرح تساؤلاً يقول: "هل أصبحت مكة المكرمة بيئة معمارية "مشوهة"؟ فقد استنتج أنّ التجديد والتطوير العمراني في نطاق الحرم المكي الشريف يتمّ على حساب نزوح المنازل؛ وأدى ذلك إلى وضع تجمعات سكانية معزولة[75]. كما أنّ معالجة واجهات الأبراج في المحيط المكي لتواكب الثقافية الإسلامية مثل "برج الساعة الفندقي المكي" الذي يعتليه الهلال الإسلامي، وكلمة "الله" تُعدّ ضرباً من الترقيع الحضاري.

[74] ـ أحمد حسن علي، **الآثار الاجتماعية للتوسع العمراني**، متاح على الرابط التالي:

http://www. aljazeera.net/knowledgegate/books/2011/1/28/الآثار-الاجتماعية-للتوسع-العمراني

[75] ـ مركز فقيه للأبحاث، **بعض جوانب التكوين العمراني حول المسجد الحرام: تحليل وتقويم**، (مكة المكرمة، 1998)، متاح على الرابط التالي:
http://fakieh-rdc.org/old/showpaper.php?action=showpaper&paperid=41704
أو http://fakieh-rdc.org/old/showpaper.php?action=showtype&papertype=1

6- القصّ المدنيّ cities telling: مرجعيات متباينة وآنيات عمرانية متشابهة في المساحات المكيّة واللاسفيجاسية:

العديد من الدراسات بدأت تركز الانتباه على التوسعات والتطورات العمرانية التي تحدث في المدن الخليجية، على وجه التحديد، وفي المدينة المكيّة على وجه أكثر تحديداً؛ لِمَا تَحمله مكة من مكانة مقدّسة مرموقة لدى المسلمين. كما أنّ تلك الدراسات لم تكن من باحثي العالم المسلم أو العربي فقط، إنما اتسع الاهتمام ليشمل باحثي الثقافات غير العربية والإسلامية لا سيما الغربية منها. يعود ذلك إلى أنّ مدينة مكة التي تُعدّ من أقدم المُدن المتعلقة بالبشرية على العموم، فهي ليست حِكراً على مسلمي العالم فقط، إنما هي للناس أجمعين، فمن يرغب في مطالعتها فقد سمحت تلك المساحة بذلك منذ تواجدها على وجه البسيطة.[76]

كما أنّ تلك التوسعات العمرانية جعلت مدينة مكة المكرّمة واحدة من المدن الكوزموبوليتانية التي تسعى إلى جذب العديد من رؤوس الأموال والأفراد، والعمل على التطاول فِي البُنيان بِغض النظر عن مراعاة العوامل التأثيرية على "معايير التصميم العمراني[77]"؛ ممّا جعلها أقرب (في بعض الأمور) إلى مدن اللهو

---

[76] ـ مثال على تلك الأدبيات التي تناولت العلاقة بين ما هو عمراني، وما هو مقدّس، ومعالجة أوجه التغييرات المادية الحادثة في بيئة المدن العربية الإسلامية مثل:

S.M.Angawi**, Makkan architectures**, (London: university of London, school of oriental African studies, ph.D., thesis).

Al-Hathlul, **planning in the Middle East, moving toward the future**, in Habitat international, vol.18, No.5, pp. 641: 643.

Rosie Bsheer, **choking Macca in the Name of Beauty and Development** (part I), OCT 2010, Available at: www.jadaliyya.com/pages/index/251/choking-mecca-in-the-name-of-beauty-and-development.

Rosie Bsheer, **choking Macca in the Name of Beauty and Development** (part II), NOV 2010, Available at: www.jadaliyya.com/pages/index/251/choking-mecca-in-the-name-of-beauty-and-development.

Geoffrey simmins, **Sacred Spaces and Sacred Places,** (verlag: VDM, 2008).

[77] ـ من أهم العوامل ذات التأثير في معايير التصميم العمراني هي: (1) **النفاذية**: معيار لتحديد حركة الإنسان داخل المكان وقدرته على النفاذ البصري من خلال إمكانية رؤية الأماكن المختلفة التي يمكن الوصول إليها، والنفاذ المادي وهو سهولة الوصول إلى تلك الأماكن، ففي المساحة المكية لم يكن هناك حرية لتحديد حركة الإنسان داخل مساحة المكان، فالذي يحدد حركته هي مسار العلامات التجارية والفنادق الباهرة؛ فهو يتجه حيث تواجدها ومِن ثم تحديد حركته تقع ضمن مساحات الإجبار التي تختلقها الرغبة الرأسمالية في استدامة تدفق الأموال والاستهلاك غير المُبرر، فالنفاذ البصري للحجيج يَجذب على نحو قسري تجاه البنيان الحداثي. (2) **التنوع**: يعني تباين الاختيارات والاستعمالات والمعاني والمفاهيم التي ترتبط بالمكان بما يحتويه المكان من عالم الأشخاص والأحداث. (3) **الاستقراء**: الفرص والإمكانيات التي يوفرها المكان لجعل الإنسان المتواجد بداخل ذلك العمران المكاني يكون صورة ذهنية خاصة به، كما أن الاستقراء يعمل على ربط الوظيفة المكانية مع تكوينه العمراني. (4) **الفاعلية**: التنوع في استغلال الفراغ؛ بحيث يمكن تأدية أكثر من عمل في الوقت نفسه أو بمرور الوقت. (5) **الملاءمة البصرية**: أي تعبير الفراغ عن وظيفته وتكوينه والأنشطة التي تدور فيه. (6) **الغنى**: أي زيادة التجارب الحسية التي يستمتع بها المُستخدم من الفراغ المعماري من خلال معايشته وجدانياً، وروحانياً، وحسياً. (7) **الشخصية الذاتية**: تعبّر عن شخصية الفرد من الفراغ بشكل مختلف عن الآخرين. مع العلم أنّ كلّ تلك العوامل يجب أن تراعي خصوصية التصميم العمراني لمجتمع معيّن وتراثه الزمكاني. للمزيد انظر:

Lewis mumford, **the city in History**, (New York: Harcourt Brace & world.inc., 1961).

Robert venture, **complexity and contradiction in architecture**, (New York: the Museum of Modern Art, 1966).

Forrest Wilson, **structure: the essence of architecture**, (New York: ww.Norton&co.inc., 1971).

فرانسيس شنج (ترجمة: أحمد الخطيب)، **العمارة: كتلة وفراغ ونظام**، (القاهرة: مكتبة الأنجلو مصرية، 2012).

والمجون، التي يعاني أهلها من الخلل ومواطن الانحدار الاجتماعي والأخلاقي في تلك المساحات؛ حيث يقوم اقتصاد تلك المدن الأخيرة على مشاريع القمار (المقامرة)، الرهن، يا نصيب، تجارة وصناعة الدعارة والعلاقات غير الشرعية، حيث تصبح مقبولة داخل تلك المساحة تجارة الخمور وغيرها من الأمور والممارسات التي تورث التفكك الاجتماعي في تلك المدن.

فمن منظور المقارنة نجد أنّ مكة أصبحت أقرب إلى المدن الكوزموبوليتانية المعولمة القائمة على أسوأ أشكال الرأسمالية، رغم أنّ تلك المدن من ناحية، ومكة من ناحية أخرى تعكس العديد من الاختلافات البارزة، ولا يمكن أن تلتقي في نقطةٍ أو مساحةٍ واحدة مشتركة من الناحية النشأة والتاريخ والوظيفة المكانية لتلك المدن من جانب، ومدينة مكة من جانب آخر.

وقد وضع الدكتور علي عبد الرؤوف - المعماري والمصمّم العمراني- دراسة مقارنة بين مدينتي مكة المكرّمة ولاس فيجاس من خلال رصد التشابهات بين المساحتين، على الرغم من مصارحته أنّ مثل هذه المقارنة قد تزعج العديد من العقول التي ترى في ذلك مبالغة يُعاقب عليها من المولى. ولكنّ صدمته الشديدة التي تلقاها حينما زار الحرم المكي؛ حيث وجد التشوش طريقه إلى مجاله البصري من خلال الكتل الخرسانية الأسطوانية لأبراج متوحشة، وفقدانه للتجربة الروحانية التي كان في انتظارها. أضف إلى ذلك أنّه وقع اختياره على تلك المقارنة على وجه الخصوص حينما زار دولة الفاتيكان، فوجد من كنيسة سان بيتر الإشباع الروحاني أكثر ممّا لقيه في الكعبة المشرّفة، والسبب أنها مُعظمّة؛ لأنها هي العلامة الفارقة في المحيط البصري للمكان، فالمكان بأسره يَخضعُ تحت قدسيتها العمرانية داخل تلك المساحة. ثم جاء السبب الأخير في اختياره لتلك المقارنة عندما زار لاس فيجاس في مؤتمر حول العمارة والعمران؛ تورط مجاله البصري على نحو عفوي وتلقائي لعقد المقارنات بين ما يوجد في تلك المساحة اللاسفيجاسية والمساحة المكيّة من كثرة التطابقات العمرانية لكلتا المدينتين.[78]

وعليه فقد تبنّت تلك الورقة عقد تلك المقارنة بين المدينتين؛ لما تشهده كلتاهما من تطورات متماثلة، رغم الاختلافات الحادة بين المرجعيات الزمكانية والروحانية للمساحتين. فقد يذهب الوجدان إلى طريق القلق والاغتمام عندما تصبح مدن مقدّسة تتسارع وتتعجل لكي تمحو تراثها وتهدمه بمعاولها الذاتية؛ كي تتحول جذرياً إلى مدن عالمية ومعولمة، تفتقد إلى الحدّ الأدنى من معاني الروحانية والخصوصية والتراثية المعززة للهويّة والنفس البشرية. فقد أضحى العديد من تلك المدن المُعولمة -التي أصبحت نموذجاً للمدن المقدّسة- يُقام

[78] - علي عبد الرؤوف، **من مكة إلى لاس فيجاس: أطروحات نقدية في العمارة والقداسة**، (القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر، يناير 2014)، ص 24

على حوافها وفي وسطها منظمات لإغاثة النفس البشرية من هول السرعة، والممارسات المُحقرة للإنسان داخل تلك المساحة الكوزموبولوتيانية. كما تقوم حكومات تلك المدن بدعم جمعيات التعامل مع مدمني المقامرة وغيرها.[79]

فمدينة **مثل لاس فيجاس** (الشهوة المؤقتة) دائماً ما تُلقب بمدينة الخطيئة؛ لأنها قائمة على لمس كلّ حواس الإنسان، والتأثير على كلّ ما هو حسّي ومادي، ومِن ثمّ تلعب على فكرة "الخرافي أي الخارج عن الوصف". فالظاهر في لاس فيجاس هو العمران الضخم، الأفراد الضاحكون، الصخب المتعالي وهذا هو الظاهر، فالظاهر دائماً لا يعبّر عن الباطن. فالعمران الظاهري لتلك المدينة قائم على رأسمالية الفراغات العمرانية، فكلّ سنتيميتر من تلك المساحة يدلل على إعلان لماركات، مواعيد لمقامرات وأنواعها، أشكال النساء التي تُعرض داخل الملاهي الليلية، وكأنها سلعة من ضمن آليات الرأسمالية غير الآدمية، ومحلات الرهان pawn shops. أمّا الباطن العمراني لتلك الفراغات فإنه يحوي عشرات من المشردين في أنفاق تلك المدينة، فالحكومة الفيدرالية قامت ببناء تلك الأنفاق لاستقبال مياه السيول والأمطار إلا أنّ تلك المساحة الباطنية للظاهر الخرافي تحوّلت إلى مأوى للعديدين ممّن هم بلا مأوى، وربما يكون هؤلاء المشردون قد شُردوا نتيجة مقامرتهم، وزيارتهم لمدينة لاس فيجاس. ها هي المدينة ذات الإبهار في مجال العمارةِ والعمران تتراوح ملامحها من المقياس العملاق فالقصة الأسطورية، مُروراً بالتركيبة الأيقونة، وأيقنة مفهوم العمران في تزييف الصادق وتصديق المزيّف.

قد تبدو مدينة لاس فيجاس من المدن المعبّرة عن التوسعات الأفقية والرأسية المُحقرة للإنسان. وبملاحظة تطور العمران في تلك المدينة نجدها قريبة الشبه بما يحدث في المدن الخليجية لاسيما في مدينة مكة المكرّمة. ففي المدينتين شَهدتْ أسعارُ الأراضي ارتفاعاً خرافياً على مستوى العالم، كما أنّ تقسيم الطوابق للمعمار المُشيد من عدة أدوار يتشابه - إلى حد كبير - بين المدينتين، فالأدوار الأولى من الكيان المعماري تتمثل في صالات القمار والكازينوهات، وذلك في مدينة لاس فيجاس، أمّا في مكة فإنّ تلك الطوابق يشغلها مراكز الاستجمام والمحلات للماركات العالمية، وكلما ارتفعت الأدوار كانت بقعة تمركز للخدمات الفندقية،

[79] - على سبيل المثال في المملكة المتحدة تنتشر المقامرة لدرجة أصبح هناك الآلاف من المدمنين، وعليه فهناك منظمات لمعالجة هؤلاء مثال "life networks community for overcoming gambling addiction" وذلك من خلال العلاج الجسدي، والعقلي، والروحي، حيث تعمل تلك المراكز على إفهام الشخص المدمن أنّ هناك فراغاً (فجوة) داخل روحه، التي يقوم بملئها من خلال قماره، وعليه تبدأ في مراحل وعمليات متوالية لإشفائه من مرض الإدمان، انظر موقع الجمعية:

http: //www.lifeworkscommunity.com /

وهذا في المدينتين، وذلك للحصول على أعلى نقطة في المجال البصري للمنظر الفوقي للمدينتين كلتيهما.[80] وهذا ما يَعني أنّ الفضاء في المدينتين يعني الفرصة لتوليد المزيد من البلايين.

تضع القيمة العقارية العالية للمدينتين منطقاً محدداً في التنمية، وهو ما أسماه علي عبد الرؤوف "نموذجِ البلدوزر في العمران"، أي الهدم من أجل التعمير؛ حيث طرح عبد الرؤوف إحصائية قائلة: إنه في 2012 تمّ هدم حوالي 7000 من الوحدات العقارية (التاريخية منها والمقدّسة) المحيطة بمكة المكرمة تمهيداً لتشييد المعمار المتطاول البنيان والمحمول بصفة الضخامة العمرانية البالغة للمجال البصري والتصوري ممّا يصيب الإنسان المتجول في تلك المساحة بالدهشة وبهرجة العمران الخرافي، وبالمثل يحدث في مدينة لاس فيجاس، فالهدم يعني أنّ الدورة الحياتية للمبنى محدودة للغاية.[81]

نجد أنّ تلك التوسعات غير المُبررة في الحرم المكي تحت دعوى زيادة القدرة الاستيعابية للحجيج، وخدمة بيت الله الحرام أصبحت تُشكل مصدراً خطراً على قائمة من المواقع التاريخية الرئيسية في تلك المساحة المكيّة، مثال العمرانيات العثمانية والعباسية القديمة من المسجد الحرام، التي يعود تاريخها إلى القرن السابع عشر، البيت الذي ولد فيه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وبيت حمزة بن عبد المطلب، كلّ تلك المواقع مُهدّدة بالهدم لإفساح الحيز المجالي لبناء مشروع تطويري على مساحة تبلغ قرابة نصف مليون متر مربع، وقد أعربتْ "مؤسسة التراث الإسلامي" عن خوفها وقلقها إزاء ذلك[82]. في حين أنّ تلك الأخيرة بالتعاون غير المباشر مع سلطات الدولة تُتهم بأنها تغضّ البصر عن مثل تلك التوسعات التي تعمل على التدمير التراثي للمواقع المقدّسة.

في المقابل نجد أنّ المسؤول عن عمليات التفسير للمشروعات القائمة على تلك التوسعات، يتمثل في الشركات الكبرى الرأسمالية، وعلى رأسها "مجموعة بن لادن للعقارات". فتلك المجموعة الأداة الأساسية المُستخدمة لتبرير ذلك التدمير، وهذا ما يعكس "الوظيفة الدينية للرأسمالية"؛ فالمال ينفق على الهدم للتطوير والتوسيع، ومن ثمّ استيعاب وخدمة الحجيج وتهيئة البيئة لهم حتى يكونوا أكثر قدرة على عبادة الله وإقامة ركن من أركان الإسلام الخمسة.

[80] ـ علي عبد الرؤوف، **من مكة إلى لاس فيجاس: أطروحات نقدية في العمارة والقداسة**، (القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر، يناير 2014)، ص 112

[81] ـ المرجع السابق، ص 113

[82] ـ المرجع السابق، ص 116

كما أنّ المدينتين تعتمدان على تزييف الصادق وتصديق الزائف، فمدينة لاس فيجاس قامت ببناء ووضع صورة ضخمة لأهرامات وفندق الأقصر في استدعاء مسرحي ساذج للعمارة الفرعونية، في المقابل قامتْ مدينة مكة ببناء أضخم ساعة في العالم تضاهي في ضخامتها "ساعة بيج بين" الحقيقية، كما تمّ هدم العمران الصادق المتمثل في منزل السيدة خديجة رضي الله عنها لإنشاء مشروع مغاسل عامة (زائفة)، وبالمثل تمّ هدم منزل أبي بكر الصديق رضي الله عنه ليقام على مساحته فندق الهيلتون[83]، وغيرها من المعالِمِ العمرانية الصادقة. كما أنّ المدينتين تعملان على طرح علاقة بين الميثولوجي[84] والثيولوجي[85]، فالمساحة المكيّة تعمل على فقدان ثيولوجيتها المقدّسة بقرار من الفكر الرأسمالي لرغبة متزايدة في الأرباح والتوسع واستغلال المساحات، التي تبدو مُهدرة من وجهة نظر الرأسمالية، حيث وُصِفَ ذلك التوسع من قِبل نقاد معماريين غربيين بأنه "صفوف خبز التوست"، مستنكرين تلك النمطية الميكانيكية والتشكيل الإستاتيكي المتناقض مع الأجواء الروحانية للمدينة المقدّسة[86]. أمّا لاس فيجاس فإنها تعمل على الاستدعاء الزائف للميثولوجيا من خلال خلق تجربة تاريخية مستوحاه من عَبق الحِقب الفرعونية لإضفاء الطابع المقدّس على المساحة الماديّة الصارخة.

---

[83] ـ المرجع السابق، ص 117. لقد طرح علي عبد الرؤوف فقرة من الكتيب الدعائي لإحدى المشروعات في أبراج البيت في الحرم المكي؛ حيث وصلت لغة وخطابات الدعاية في الأراضي المقدّسة إلى مرحلة مدعاة للسخرية، فتأمل الفقرة التالية التي تقول "**برج مكة كلوك رويال، فندق فيرمونت أحد أبراج البيت السبعة، يطاول أبراج العالم وصولاً إلى 577 متراً، ويضم وحدات إعمار رزيديسنسز بفيرمونت مكة. فإضافة لاحتوائه على باقة من المطاعم والقاعات الاجتماعية والمناسبات، تتألق قمة البرج بساعة تُعلّم المسلمين بأوقات الصلاة، إذ يصل طولها إلى 40 متراً، ما يشكل 5 أضعاف حجم ساعة بيج بين الشهيرة في لندن**"؛ وعليه فإنّ مثل تلك اللغة تدلل على أنّ تلك الرحلة الروحانية أصبحت للحاج الثري فقط الذي قامت سلطة الفتاوى المكية بإصدار فتاوى تسمح فيها بالصلاة في غرف وأجنحة الفندق، كما أنها تعادل ثواب الصلاة في الحرم المكي، ودون مغادرة الغرفة أو الجناح فيكفي فقط التوجه إلى القبلة والنظر من أعلى إلى الكعبة الشريفة تلك النقطة السوداء التي لم تعد ذات مساحة نسبية مقارنة بالعمران المتطاول العملاق المحاط بها. انظر: علي عبد الرؤوف، ص 121

[84] ـ **الميثولوجي** هو علم الجينولوجي للأساطير يشير إلى مجموعة من الأساطير المتعلقة بالثقافات والمرجعيات المختلفة عبر الزمن وفي أماكن متفرقة، وقد يتناول هذا العلم فهم وتفسير سياقات تلك الأساطير ومضمونها، للمزيد انظر:

Michelle M.Houle, **gods and goddesses in Greek mythology**, (USA: Berkeley press, 2001). Available at: http://www.google.com.eg/url?sa=t&rct=j&q=&esrc=s&source=web&cd=3&cad=rja&uact=8&ved=0CCMQFjAC&url=http%3A%2F%2Fobinfonet.ro%2Fdocs%2Frelig%2Fgreek%2Fgreekmyths1.pdf&ei=RTKcVd_6HYa3oQTvpJzIDQ&usg=AFQjCNGwJ6kNTBnryP7gKQlzwf9E8zBT-g&bvm=bv.96952980,d.cGU

Joshua J. Mark, **Mythology**, Ancient History Encyclopedia, published on 02 September 2009, available at: http://www.ancient.eu/mythology/

[85] ـ **الثيولوجي** هو علم اللاهوت، وهو دراسة منهجية وعقلانية لمفاهيم الله وطبيعة الأفكار الدينية، علم دراسة الإلهيات دراسة منطقية، وقد اعتمد علماء اللاهوت على التحليل العقلاني لفهم الأديان بشكل أوضح، كما أنهم يقارنون بين الأديان أو التقاليد الأخرى، وللدفاع عنها في مواجهة النقد، ولتسهيل الإصلاح الديني، ينقسم علم اللاهوت إلى فروع كثيرة، كاللاهوت العقائدي، والأدبي، والتاريخي، والفلسفي، والطبيعي وغيرها. للمزيد انظر:

H.H Pope shenooda III (translated by: Mary & Amani Bassilli), **Comparative theology**, (London: Coptic Orthodox Publishers Association, 1988), available at: http://www.google.com.eg/url?sa=t&rct=j&q=&esrc=s&source=web&cd=1&cad=rja&uact=8&ved=0CBwQFjAA&url=http%3A%2F%2Fwww.copticchurch.net%2Ftopics%2Ftheology%2Fcomptheo.pdf&ei=tTicVcWmHdjfoASb45KgBg&usg=AFQjCNExU_vBigZQAks-ow5pjRT53-zMjw

[86]. Oliver Wainwright, **Mecca's mega architecture casts shadow over hajj**, the guardian, Oct 2012, available at: http://www.theguardian.com/artanddesign/2012/oct/23/mecca-architecture-hajj1

الشكل المُوضح للوصف "صفوف خبز التوست" كما جاءت في مقال أولفير سينرايت في صحيفة

فالعنف المعماري أو الانفلات المعماري، أو كما أسماه نيكولاي أوروسوف في مقال له حول ما يحدث في مكة "بالسخف المعماري" يُشكِّلُ حالة من الاتجار ببيت الله بدلاً من خدمة بيت الله[87]، ففلسفة الحج قامت على التجرد من ملاذ الدنيا والمساواة والتواضع أمام الله عزّ وجلّ، إلا أنّ ما يحدث في المساحة المكيّة انعكس في المعاناة العمرانية والمعمارية التي راحت تطرح "بقضية المقياس"؛ حيث أصبح قياس الكعبة بالنسبة للأبراج الأسطورية المحيطة بها بمثابة عملية تكرّس من ضآلة الحرم المكي والمساحات المقدّسة الروحانيّة المكيّة.

[87]. NICOLAI OUROUSSOFF, **New Look for Mecca: Gargantuan and Gaudy**, the New york times, Dec, 2010, available at: http: //www.nytimes.com/2010/12/30/arts/design/30mecca.html?_r=0

7- الخاتمة

تلخيصاً لما سبق، قد يُطرح على التفكير عدد من التساؤلات حول أحقيّة الفرد في تشكيل مدينته، سواء كانت مقدّسة أو لها طابع مدني إنساني. فالمدن بشكل أو بآخر تعبّر عن معاناة وتحركات وتطورات الأفراد القاطنين بداخلها. فعندما يتطرّق الأمر إلى التداخل بين إشكاليات ما هو قانوني، وما هو واقعي، وما هو سيادي، وما هو عمراني تمدني إنساني فإنّ ذلك يُحدث حالة من الارتباك وتنازع السيادات والسلطات، فتنشأ حالة من "اللا اعتياد" التي تسمح للأقوى بين كلّ تلك الماهيات للسيطرة على تحركات وحياة تلك الماهيات. فتصبح هناك ماهية واحدة هي التي تتحكم في موازين الأمور، وفي أغلب الأحيان تكون الغلبة "للسيادة" التي تُصبح مطابقة للسلطة والقوة غير المُبرّرة. فتصبح الجماعات أو الأفراد أو حتى الفرد أو الأسرة الواحدة التي تحكم هي التي تتعامل مع المدينة وكأنها ملكيّة خاصّة. في المقابل يكون هناك آليات ومؤسسات أخرى تعمل على تمكين تلك الماهية من خلال مفاهيم عديدة، تعطيها معاني محدّدة بما يخدم مصلحة تلك السيادة غير المُبرّرة في حالتها الاستثنائية والاعتيادية. قد تكون تلك المفاهيم مفاهيم أمنية، قومية، مصلحة جماعية، والأخطر من كلّ ذلك أن تكون مفاهيم تؤسّس لممارسات باسم دينية الأفعال المقدّسة، التي لا يحق لأحد أن يُناقش مدى صوابها، مثلاً، خدمة بيت الله الحرام، تيسير الحج، تكثيف عبادة الله وتسهيلها.

إنما في الواقع يكون الأمر مُجرد اختزال كامل للمدن من خلال قدرة الممارسات الحداثية على إيجاد مساحة يمكن اختبارها من خلال البحث العلمي، والبحث الاجتماعي لحالة الاستثناء، وعليه فلم تعد تلك الحالة حالة دستورية أو فوق دستورية، إنما هي مساحة ننظر إليها بكل تفاصيلها، وواقع أُجبرت على معايشته، فلم تعد تلك الحالة حالة استثنائية، إنما هي حالة لها خصائص نجدها تتماهى في خصائص المدن الكوزموبوليتانية؛ حيث تحدث حالة من الارتباك وتنازع السيادات تسمح بتوحش غير متوقع، على عكس المنظور إليها باعتبارها مساحات أكثر تمدناً، وفيها ثقافات متنوعة وتعددية عرقية وغيرها. ولكن في حقيقة الأمر لأنّ هناك تشابكات سيادة مختلفة يحملها رأس المال، وعلى الرغم من تعدد الطبقات القانونية التي تحكم وتنظم تلك المساحات الكوزموبوليتانية؛ تنشأ إشكاليات حقيقية تجعل هذه المساحات أقرب إلى مساحات أو ساحات العنف، سواء كانت ساحة قتال أو اعتقال أو احتلال أو اغتصاب، منها إلى أفراد يتحرّكون في مساحات مفتوحة، ويشعرون أنهم هم الأفراد الكوزموبوليتانيون. ولكن مع فهم جوهر ديناميكيات القوة داخل مساحات العنف القائمة على الهدم والدمار للأرواح والثقافات، سيتم اكتشاف الغرابة الشديدة التشابه في بعض توزيعات القوى في المدن الكوزموبوليتانية الحداثية، بل ما بعد الحداثية التي قد تعتمد على ماهية السيادة المفرطة في وضع ما ترغبه ويرغبه رأس المال المتحكم في القرار النهائي للأحيزة، ومساحات المدن الكوزموبوليتانية، أو التي تسعى لأن تكون كوزموبوليتانية سواء كان ذلك على وعي أو لا وعي منها بذلك.

فبالنظر إلى السيطرة على المساحة المكيّة تحت دعوى مسؤولية تسهيل الحج والاعتمار في بيت الله الحرام، أصبحت الأفعال التوسعية هي قانون اللحظة الذي يتمّ فيها هدم منازل الصحابة وإقامة الأبراج الضخمة المتعالية البنيان لجذب رؤوس الأموال المكرّسة للطبقية في المساحة الربانيّة، التي أقسم المولى عزّ وجلّ بغفران ذنوب العباد المتساوين الشعثاء، والمتجهين إلى ربهم بقلوب خارجة عن كلّ ما هو دنيوي وحسّي وشهواني.

وعليه فالعنف أو الانفلات العمراني الذي تشهده وستشهده المساحة المكيّة ممّا جعلها أقرب إلى المدن الكوزموبوليتانية المُنتَقدة أو المنبوذة في الداخل الغربي في الوقت الراهن بسبب الممارسات الوحشية، والتعامل مع الحيز والممارسات التي تصبح خارج القانون في تلك المساحة الكوزموبوليتانية سيجعل الأمور معقدة وأصعب على تناولها من جوانبها وزواياها المختلفة. فالمدن العربية الإسلامية لاسيّما الخليجية منها، والمكيّة على نحو أدق وأكثر كارثية لأنها متعلقة بالروحانيات وأركان الإسلام الأساسية، تسعى إلى جعل مساحة مدينتها أقرب إلى مدن العولمة، بقرارات من الرأسمالية والسلطة المُحتكرة لمفاصل الأمور في المدينة دون النظر إلى خصوصيات المكان والأفراد المتواجدين بداخله.

المراجع:

أولاً: المراجع باللغة الإنجليزية:

- Adna F. Weber, **the Growth of Cities in the Nineteenth Century** (New York: Columbia University Press, 1899).
- Anthony Giddens and others, **Introduction to Sociology**, (W. W. Norton & Company; Seagull Ninth Edition, December 12, 2013).
- Al-Hathlul, **planning in the Middle East, moving toward the future**, in Habitat international, vol.18, No.5).
- David Harvey, **Rebel Cities: From the Right to the City to the Urban Revolution**, (London: verso press, 2013).
- E.B.Tyalor**, primitive culture**, (London, 1871, vol.I).
- Erving goffman**, Behavior in public places: notes on the social organization of gatherings**, (USA: The free press and colophon, 1966).
- Forrest Wilson, **structure: the essence of architecture**, (New York: ww.Norton&co.inc., 1971).
- H.H Pope shenooda III (translated by: Mary & Amani Bassilli), **Comparative theology**, (London: Coptic Orthodox Publishers Association, 1988), available at: http://www.google.com.eg/url?sa=t&rct=j&q=&esrc=s&source=web&cd=1&cad=rja&uact=8&ved=0CBwQFjAA&url=http%3A%2F%2Fwww.copticchurch.net%2Ftopics%2Ftheology%2Fcomptheo.pdf&ei=tTicVcWmHdjfoASb45KgBg&usg=AFQjCNExU_vBigZQAks-ow5pjRT53-zMjw
- Geoffrey simmins, **Sacred Spaces and Sacred Places,** (verlag: VDM, 2008).
- John Caulfield and linda peaka(eds.), **city lives and city forms: critical research and Canadian urbanism** (Toronto: University of Toronto press, 1996).
- Joshua J. Mark, **Mythology**, Ancient History Encyclopedia, published on 02 September 2009, available at: http: //www.ancient.eu/mythology/
- Kingsley davis, **The origin and growth of urbanization in the world**, American Journal of Sociology, Vol. 60, No. 5, World Urbanism (Mar., 1955).
- Kevin Lynch,"**Site Planning**", (Cambridge: The M.I.T,1971).
- Lewis mumford, **the city in History**, (New York: Harcourt Brace & world.inc., 1961).
- Manual castells, **The Urban Question. A Marxist Approach**, (London: The MIT Press, 1979).
- ----------, **City, Class, and Power**, (London; New York, MacMillan; St. Martins Press,1978).
- Michelle M.Houle, **gods and goddesses in Greek mythology**, (USA: Berkeley press, 2001). Available at: http://www.google.com.eg/url?sa=t&rct=j&q=&esrc=s&source=web&cd=3&cad=rja&uact=8&ved=0CCMQFjAC&url=http%3A%2F%2Fobinfonet.ro%2Fdocs%2Frelig%2Fgreek%2Fgreekmyths1.pdf&ei=RTKcVd_6HYa3oQTvpJzIDQ&usg=AFQjCNGwJ6kNTBnryP7gKQlzwf9E8zBT-g&bvm=bv.96952980,d.cGU
- **Mecca makeover: how the hajj has become big business for Saudi Arabia**, the guardian, Nov 2010, available at:
- http: //www.theguardian.com/world/2010/nov/14/mecca-hajj-saudi-arabia
- NICOLAI OUROUSSOFF, **New Look for Mecca: Gargantuan and Gaudy**, the New York times, Dec, 2010, available at:

- http: //www.nytimes.com/2010/12/30/arts/design/30mecca.html?_r=0
- Oliver Wainwright, **Mecca's mega architecture casts shadow over hajj**, the guardian, Oct 2012, available
- at: http: //www.theguardian.com/artanddesign/2012/oct/23/mecca-architecture-hajj1
- Rosie Bsheer, **choking Macca in the Name of Beauty and Development** (part I), OCT 2010, Available at: www.jadaliyya.com/pages/index/251/choking-mecca-in-the-name-of-beauty-and-development.
- Rosie Bsheer, **choking Macca in the Name of Beauty and Development** (part II), NOV 2010, Available at: www.jadaliyya.com/pages/index/251/choking-mecca-in-the-name-of-beauty-and-development.
- Robert venture, **complexity and contradiction in architecture**, (New York: the Museum of Modern Art, 1966).
- R.e.Dixon, **the Building of Culture**, (New York, 1928).
- Robert E. Park, Ernest W. Burgess, and Morris Janowitz (introducer), **The City: Suggestions for Investigation of Human Behavior in the Urban Environment (Heritage of Sociology Series)**, (Chicago: University of Chicago Press, 1984).
- Saskia sassen, **the global city: New York, London, Tokyo**, (UK: Princeton press, 2001).
- Sherif Abdel Rahman Seif EI-Nasr, **Strategies of stability: US intervention in the Middle East (1953: 2008) A social complexity Approach**, (Liverpool: university of Liverpool, 2012).
- Suha zkan, **faith, culture, and architecture: in faith and built environment, architecture and behavior**, VOL.11, NO.3-4.
- Sayyed Hossin Nasr, **Islamic Art and Spirituality**, (New York: state university of new york press, 1987).
- Simonds. Johan, **Landscape Architecture**, (U.S.A: Mc Graw Hill, 2nd Edition 1983).
- S.M.Angawi**, Makkan architectures**, (London: university of London, school of oriental African studies, ph.D., thesis).
- Yoshinobu Ashihar, **"Exterior Design In Architecture**", (New York: Van Nostrand Reinhold, 1981).

ثانياً: المراجع باللغة العربية:

- أحمد حسن علي، **الآثار الاجتماعية للتوسع العمراني**، متاح على الرابط التالي:
http://www. aljazeera.net/knowledgegate/books/2011/1/28/الآثار-الاجتماعية-للتوسع-العمراني
- أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، (بيروت، دار القلم، ج1، 1984).
- الإمام تقي الدين أبو البقاء الفتوحي، **شرح الكوكب المنير**، (مطبعة السنة المحمدية، ج3، 1987).
- أبو بكر أحمد الرازي الجصاص، **أحكام القرآن**، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1994).
- إسماعيل بن محمد العجلوني، **كشف الخفاء ومزيل الإلباس**، ج1، (بيروت: مؤسسة رسالة، 1403).
- أبو الحسن على بن محمد حبيب الماوردي (تحقيق: رضوان السيد)، **تسهيل النظر وتعجيل الظفر بأخلاق الملك وسياسة الملك**، (بيروت: المركز الإسلامي للبحوث، دار العلوم العربية، 1987). **القاموس المحيط**، الفيروز آبادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت: الطبعة الأولى 1991، الجزء الثاني).
- إليكس هالي (ترجمة: ليلى أبو زيد)، **سيرة ذاتية**: **مالكوم إكس**، (بيروت: بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، 1996).
- المكتبة الإسلامية، **الآثار الاجتماعية الناشئة عن التوسع العمراني**، متاح على الرابط التالي:
http://library.islamweb.net/newlibrary/display_umma.php?lang=&BabId=1&ChapterId=4&BookId=2101&CatId=201&startno=0

- ابن الأزرق (تحقيق: محمد عبد الكريم)، **بدائل السلك في طبائع الملك**، (بيروت: الدار العربية للنشر، ج1، 1977).
- خالد بن سليمان العبيد، **الحرم المكي الشريف: التوسعات العمرانية وتطور الخدمات(دراسة تحليلية)**، (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، 1426).
- خالد عزب، **فقه العمارة الإسلامية**، (القاهرة: دار النشر للجامعات المصرية، 1997).
- .....، **فقه العمران: العمارة والمجتمع والدولة في الحضارة الإسلامية**، (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، يناير 2013).
- حسن فتحي (ترجمة: مصطفى إبراهيم فهمي)، **عمارة الفقراء: تجربة في ريف مصر**، (القاهرة: نهضة مصر، 2009).
- رقية نجية، **البيئة الطبيعية لمكة المكرمة: دراسة الجغرافية الطبيعية لمنطقة الحرم الشريف** (المملكة العربية السعودية: مؤسسة الفرقان للتراث، 2000).
- رفيق العظم (تقديم: عبد الرحمن حللي)، **البيان في التمدن وأسباب العمران**، (القاهرة: دار الكتاب المصرية، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 2012).
- صادق فقيه، **تأصيل الطابع المعماري المكي في عمارتها الحديثة**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 2010، ص ص 36: 44، متاحة على الرابط التالي:
http://www.google.com.eg/url?sa=t&rct=j&q=&esrc=s&source=web&cd=1&cad=rja&uact=8&ved=0CBwQFjAA&url=http%3A%2F%2Flibback.uqu.edu.sa%2Fhipres%2Ffutxt%2F7928.pdf&ei=4QCVVcvYGYHrUM_IgJAL&usg=AFQjCNFUNtfBDWWiqStUjvSPhIm4v6Mm3g&bvm=bv.96952980,d.bGg
- طارق علي فدعق، عبد المحسن فرحات، **نحو مبادئ متكاملة لتخطيط وتصميم المنطقة المركزية لمكة المكرمة**، (المملكة العربية السعودية: مجلة جامعة الملك عبد العزيز، العلوم الهندسية، 1992)، متاح على الرابط التالي: http: //www.kau.edu.sa/Show_Res.aspx?Site_ID=320&LNG=AR&RN=52486
- عبد الرحمن النفيسة، **مسؤولية المهندسين والبنائين**، (مجلة البحوث الفقهية المعاصرة، السنة السادسة، العدد2، 1415).
- عبد الله السدحان، **الآثار الاجتماعية للتوسع العمراني: المدينة الخليجية نموذجاً**، (الدوحة: مركز البحوث والدراسات، 2010).
- عبيد السبيعي، **تصور المجال المعماري والعمراني عند الفقهاء**، في ندوة: الفكر الديني ومواكبة العصر (الواقع والآفاق)، (جامعة الزيتونة، مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان، 28-29-30 نوفمبر 2005).
- علي عبد الرؤوف، **من مكة إلى لاس فيجاس: أطروحات نقدية في العمارة والقداسة**، (القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر، يناير 2014).
- عبد اللطيف بن عبد الله بن دهيش، **عمارة المسجد الحرام والمسجد النبوي في العهد السعودي: دراسة تاريخية حضارية**، (المملكة العربية السعودية: مكتبة الملك فهد الوطنية، 1999).
- فرانسيس شنج (ترجمة: أحمد الخطيب)، **العمارة: كتلة وفراغ ونظام**، (القاهرة: مكتبة الأنجلو مصرية، 2012).
- مسفر بن علي القحطاني، **الوعي الحضاري: مقاربات مقاصدية لفقه العمران الإسلامي**، (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2013).
- محمد الطاهر بن عاشور، **التحرير والتنوير**، (تونس: الدار التونسية للنشر، ج2)، ص 449.
- ملحم قربان، **خلدونّيات السياسة العمرانية: دراسات منهجية ناقدة في الاجتماع السياسي**، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1984).
- مركز فقيه للأبحاث، **بعض جوانب التكوين العمراني حول المسجد الحرام: تحليل وتقويم**، (مكة المكرّمة، 1998)، متاح على الرابط التالي:
http: //fakieh-rdc.org/old/showpaper.php?action=showpaper&paperid=41704 أو http: //fakieh-rdc.org/old/showpaper.php?action=showtype&papertype=1
- نصر عارف، **في مصادر التراث السياسي الإسلامي**، (فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1994).

MominounWithoutBorders

@ Mominoun_sm

Mominoun

الرباط – المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هـاتـف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com